THE 39 STEPS

JOHN BUCHAN

فريق
متميزون
E-BOOK

جون بوكان

رواية

سر الدَرجات التِسع والثلاثين

ترجمة: أسماء عرفة

دار دوّن

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سِرّ الدرجات التِسعِ والثلاثين

رواية مترجمة..

چون بوكان

ترجمة: أسماء عرفة

عن الرواية

"إلى الآن لا يعرف الكثيرون أن الروائي ""جون بوكان"" صاحب رواية ""الدرجات التسع والثلاثين"" الرواية الأشهر في عالم روايات الألغاز والجريمة, ذلك الرجل الذي ولد ابنًا لكاهن فقير هو نفس الرجل الذي صار لاحقا حاكمًا لكندا وعضوًا في مجل العموم البريطاني, وصديقا لكبار الزعماء في العالم بأسره.في هذه الرواية التي تبدأ بحادثة شديدة الغرابة, حيث يقابل بطل الرواية رجلًا مريب المنظر يخبره أنه كان يراقبه , وأنه يحمل سرا له علاقة بمكان مجهول في اسكتلاندا, بعدا يجد البطل الرجل مقتولا قبل أن يخبره بأمر ذلك المكان المجهول, ثم يموت, يتمكن من الفرار متجهًا إلى ذلك المكان, أملًا في العثورة على دليل برائته, ليتورط أكثر في سلسلة خطيرة من الأحداث البوليسية والصراع الدامي بين دوائر الجاسوسية الدولية, ليظهر له سر أكبر بكثير من مجرد جريمة قتل قد تورط فيها.

ببراعة وذكاء شديدين يثير فضولنا المؤلف طوال أحداث الرواية فلا تستطيع أن تركها من بيد يديك دون أن تعرف السر وراء المفكرة الغامضة التي وجدها البطل, وما هو السر الغامض وراء هذه الدرجات التسع والثلاثين؟"

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الأول

الرجل الذي لقي حتفه

عدت لتوي من المدينة قرابة الساعة الثالثة من ظهر أحد أيام مايو بينما ينتابني شعور بالاشمئزاز من تلك الحياة إلى حد كبير، كان قد مضى عليّ ثلاثة أشهر في ذلك المكان حتى سئمت منه، ولو أخبرني أحدهم أنني كنت سأختبر هذا الشعور منذ عام مضى لشرعت في الضحك. ولكن الحقيقة.. أن المناخ السائد قد أفقدني أي رغبة في الحياة، حتى حديث المواطن الإنجليزي العادي قد أصابني بالإعياء، إذ لم أستطع التدرب بما يكفي لاعتياد الأمر، فيما بدت زيارة ملاهي لندن كإبقاء مياه غازية تحت أشعة الشمس.

ظللت أخاطب ذاتي قائلاً:

ريتشارد هاناي، لقد أقحمت روحك في الخندق الخاطئ يا صديقي، كان يتوجب عليك أن تجد طريقًا للخروج منه. مجرد التفكير كان يجبرني على عض شفتيّ، التفكير فيما كنت أخطط له طوال السنوات الأخيرة في «بولاوايا» في زيمبابوي، فقد حصلت على مرادي هناك، حتى ولو لم يكن كما أردته ولكنه كان كافيًا، كما أنني استطعت بلوغ كل الطرق التي من شأنها أن تضفي الاستمتاع على حياتي.

أخرجني والدي من اسكتلندا وأنا في عمر السادسة، ولم أعهد العودة لوطني مذ ذلك الحين، لذلك فإن إنجلترا كانت بمثابة حكايات ألف ليلة وليلة الأسطورية بالنسبة لي، وقد اتكلت على الاستقرار فيها لما تبقى من حياتي، ولكنها خيبت آمالي من الوهلة الأولى التي خطت فيها قدمي هنا، فقد مللت رؤية معالمها خلال أسبوع، وفي أقل من شهر كنت قد اكتفيت من مطاعمها ومسارحها وسباقاتها المستمرة.

لم يكن لدي رفيق حقيقي كي أحتمل الأمر معه، وهو ما يوضح شعوري تجاه كل هذا. كان العديد من الناس يدعونني لمنازلهم دون أن يبدي أحدهم اهتمامًا صادقًا بذلك، كانوا يطرحون عليّ سؤالًا أو أكثر حول ما آلت إليه الأمور في جنوب إفريقيا، ثم يعودون سريعًا لشئونهم الخاصة.. حتى أن العديد من السيدات ذات المكانة المرموقة كنّ يدعونني لاحتساء الشاي، للقاء معلمين من «نيوزيلندا» ومحررين من «فانكوفر»، وكان ذلك هو العمل الأكثر إزعاجًا من بين آخرين. هكذا كنت أنا.. عمري سبعة وثلاثون عامًا، أتمتع بصحة جيدة، ولدي ما يكفي من المال لقضاء وقت ممتع، أومئ برأسي لهم متثائبًا طوال اليوم فحسب، حتى أنني أوشكت على حزم حقائبي والعودة إلى الأراضي الإفريقية، وذلك لأنني كنت الرجل الأكثر ضجرًا في المملكة المتحدة على الإطلاق.

وفي ظهر ذلك اليوم وبعدما تبادلت حديثًا مع وكلائي حول أمور تخص الاستثمارات، كي أشغل عقلي بها، مررت على الحانة في طريقي إلى المنزل، والتي كانت تجمع أعضاء معنيين بالشئون السياسية، احتسيت الشراب لوقت طويل وشرعت أقرأ الأخبار المسائية التي كانت تمتلئ بنزاعات الشرق المجاور، وكانت هناك مقالة تتحدث عن «كاروليديس» رئيس الوزراء اليوناني. نما لدي

إعجاب بشخصه، إذ بدا – من جميع الجوانب - كالرجل الأوحد في الصورة، والذي يدير لعبته السياسية بنزاهة، استنبطت كونه مكروهًا بشدة في كل من برلين وفيينا، ولكن مساندتهما له كان أمرًا مفروغًا منه..

حتى أن إحدى الصحف وصفته بأنه «الحائل الوحيد الذي يقف بين أوروبا والحرب التي من شأنها أن تمحيها من على وجه الأرض». لطالما كنت أتساءل عن إمكانية أن أنخرط في تلك الشئون، حيث بدت لي ألبانيا من نوعية الأماكن الخالية من الملل.

قصدت منزلي قرابة السادسة، ارتديت ملابسي، تناولت العشاء في مقهى «رويال»، ومن ثم اتجهت إلى قاعة الموسيقى، حيث كان يقام عرض سخيف، نساء يرقصن بميوعة ورجال من حولهن يشبهون القردة، لذا لم أبق هناك طويلاً.

كانت الليلة رائعة والطقس يحمل من النقاء ما دفعني للعودة سيرًا على الأقدام إلى الشقة التي قمت باستئجارها قرب شارع «بورتلاند»، بينما تتزايد حشود من الناس قبالتي على الأرصفة، منخرطون في أحاديثهم، كنت أحسد هؤلاء المارة لامتلاكهم ما يشغل بالهم، الفتيات اللاتي يقمن بالتسوق، الموظفين، الرجال شديدي التأنق ورجال الشرطة، فجميعهم يمتلكون شغفًا في الحياة، اهتمامًا يجعلهم قادرين على المواصلة، حتى أنني أعطيت نصف إسترليني لشحاذ لمحته عيناي وهو يتثاءب، لقد كان زميلًا لي في المعاناة!

وعند محطة «أوكسفورد سيركيس» توقفت محدقًا في السماء التي كانت تعكس طقسًا ربيعيًّا وعاهدت نفسي بأنني سأعطي تلك المدينة يومًا واحدًا أخيرًا كي ترشدني لما يناسبني أيًّا ما يكون، وفي حالة عدم حدوث ذلك فسوف أبحر في أول مركب متجه إلى مدينة «كيب» الإفريقية. كانت شقتي تلك في الطابق الأول من بناية حديثة خلف شارع «لانغهام»، وكان بها درج مشترك عند المدخل مع حامل للحقائب وعامل للمصعد، ولكن لم يكن هناك مطعم أو ما شابه، وكل شقة منعزلة إلى حد كبير عن مثيلاتها.

كنت أكره الخدم التابعين للبناية، لذا كنت أتعامل مع رجل أعرفه ليدير المنزل بشكل يومي، حيث كان يصل قبيل الثامنة كل صباح واعتاد المغادرة في تمام السابعة، نظرًا لأنني لا أتناول العشاء في المنزل قط.

وبينما كنت أحاول فتح باب شقتي فإذا برجل إلى جواري، لم ألحظه وهو يقترب مني، لذا فإن ظهوره المفاجئ أدهشني، رجل نحيل، ذو لحية بنية صغيرة، عيون زرقاء ثاقبة، لوهلة ظننته الرجل الذي يسكن في الطابق العلوي والذي التقيته يومًا ما على ذلك الدرج، حتى استوقفني بقوله:

«هل بإمكاني التحدث إليك؟ أتسمح لي بالدخول لدقيقة؟».

كان يحاول جاهدًا أن يجعل صوته طبيعيًّا، بينما يداه تواصلان الإمساك بذراعي.

فتحت الباب وأشرت إليه بالدخول، وبمجرد تخطيه لعتبة الباب، اندفع نحو غرفتي الخلفية، حيث أدخن وأكتب رسائلي، ومن ثم تراجع مرة أخرى. «هل ذلك الباب مغلق؟».. كان يسأل محمومًا ويده مثبتة على قفل الباب.

ثم قال بتواضع:

«أعتذر كثيرًا، أعلم أنني أقتحم مساحة حريتك، ولكنك تبدو كرجل يمكنه تفهم موقف كهذا، لقد أبقيتك في ذهني طوال ذلك الأسبوع، خاصة عندما سارت بعض الأمور على نحو سيئ، فهل يمكنك تقديم يد العون لي؟».

أجبته قائلاً:

«سوف أستمع إليك، هذا كل ما يمكنني أن أعدك به».

بدأ شعور بالقلق ينتابني تجاه ذلك الرجل ذي التصرفات المثيرة للريبة، والذي كان يحتسي الخمر بنهم من طاولة المشروبات بجانبه، حتى امتلأت معدته بالويسكي والصودا، حيث كان ينهي الكأس الواحدة على ثلاث جرعات، ومن ثم يضرب بها الطاولة.

فاعتذر بالفرنسية بقوله:

«آسف».

ثم تابع:

«أنا متوتر قليلاً اليوم كما ترى، إذ من المفترض أنني في عداد الموتى الآن».

فجلست في مقعدي، أشعلت غليوني وسألته:

«وكيف يبدو ذلك الشعور؟».

بينما كنت على يقين تام أنه يتعين عليّ التعامل مع رجل مختل.

وهنا اعتلت وجهه ابتسامة وهو يجيب:

«أنا لست مختلاً يا سيدي، لقد كنت أراقبك وأحسب أنك شخص رائع، إضافة لكونك رجلًا أمينًا ولا أخشى كشف أوراقي أمامك، سأضع كل ثقتي بك، فأنا أحتاج للعون أكثر مما قد يحتاج إليه أي إنسان آخر، وأود أن أتأكد إن كان بإمكاني الاعتماد عليك».

فجاء ردي سريعًا:

«ادخل في صلب الموضوع، ومن ثم يمكنني إخبارك».

بدا وكأنه يحاول الشروع في الحديث بجهد بالغ، أما من جانبي فلم أحتمل البقاء صامتًا في البداية، حيث كان عليّ إيقافه لطرح الأسئلة، وكان جوهر ما توصلت إليه: أنه رجل أمريكي من ولاية كنتاكي، ميسور الحال؛ مما مكنه من أن يجوب العالم، كتب لفترة قصيرة، كما عمل مراسلًا وقت الحرب لصحيفة «في شيكاغو»، وقضى عامًا أو عامين في جنوب شرق أوروبا.

استنبطت كونه لغويًّا بليغًا، يعلم جيدًا طبقات المجتمع الذي يعيش فيه، حيث جاء على ذكر العديد من الأسماء التي أتذكر رؤيتها في الصحف بينما يتحدث، كان يقوم بالتلاعب بالأمور المتعلقة بالسياسة

إذ أخبرني أنه كان يفعل ذلك في البداية لصالح المعنيين بها، إلا أنه لم يتمالك رغبته في الاستمرار بعد ذلك، كان حاد الطبع لا يهدأ، دائمًا ما يرغب في البحث عن جذور الأشياء، كي يبلغ مكانًا أعمق مما يريد.

وبناء على ما فهمت، فقد كانت هناك حركة سرية، أسسها أناس خطرون للغاية دون علم الحكومات أو تدخل من الجيوش، واكتشفها هو بمحض الصدفة؛ وعندما أسرته، تمادى أكثر من اللازم، فأمسكوا به، استنبطت من حديثه أن معظم المشاركين في تلك الحركة من الأناركيين الحاصلين على درجات علمية، الراغبين في اندلاع الثورات، جنبًا إلى جنب مع بعض الممولين الذين يدخلون تلك اللعبة من أجل المال، إذ تمثل الأسواق الهابطة فرصة للماكرين لتحقيق أرباح هائلة، فهي صفقة مضمونة نتائجها للطرفين إذا ما استمر الخلاف في أوروبا، لقد أخبرني بعضًا من الأشياء الغريبة، والتي كان من شأنها إيضاح الصورة التي لطالما حيرتني عما حدث في حرب البلقان، كيف تصدرت بلد المشهد هكذا فجأة؟ لم تقام التحالفات ولم تحل؟ لم يختفي رجال بعينها؟ وكيف تشتد وتيرة الحرب بهذه الطريقة؟

كان الهدف من كل هذه المؤامرة هو الزج بروسيا وألمانيا نحو خلاف دائم، وعندما سألته عن السبب، أجابني بأن الفوضويين يعتقدون بأن تلك ستكون فرصتهم السانحة، فكل شيء سينصهر في بوتقة المجتمع ليتشكل عالم جديد يخرج إلى النور، وسيبذل الرأسماليون الغالي والنفيس تسهيلاً لذلك، حيث سيتمكنون من جمع الثروات من حطام الحرب.

قال موضحًا:«لا يملك رأس المال ضمير ولا حس وطني، إضافة إلى أن اليهود كانوا أبرز ممثليه، والذين يكرهون روسيا كثيرًا بدورهم، ربما أكثر من كرههم للجحيم ذاته».

وتعالت نبرة صوته مستكملاً:« هل يبدو ذلك غريبًا؟ لقد تعرضوا لاضطهاد دام ثلاثمائة عام، وهذه ليست سوى مباراة عودة لمباراة ذهاب المذابح التي أقيمت ضدهم، فاليهود في كل مكان، عليك فقط أن تبحث عنهم في السلالم الخلفية كي تجدهم.

فإذا كانت لديك تعاملات تجارية لإبرام أي صفقة ألمانية لسوف تلتقي أولًا برجل يدعى «فون أوند زو» أو أيًا ما يكون اسمه، وهو شاب أنيق يتحدث إنجليزية مدرسة «إيتون وهارو»، ولكن وجوده كعدمه، فإذا تبين أن تجارتك كبيرة، سوف تتخطاه نحو رجل أكثر أهمية عابس الوجه من فيستفاليا يتصرف كالخنزير، إنه رجل الأعمال الألماني الذي سيمرر أوراقك الإنجليزية.

أما في حالة توسع نطاق عملك لما هو أكبر من ذلك، فسوف تلتقي بالرجل الأول، وهو اليهودي المقعد أبيض البشرة، له عينان كعين أفعى سامة. أجل يا سيدي، إنه الرجل الذي يتحكم في العالم بأسره الآن، ولديه ثأر لم يؤخذ بعد من إمبراطورية القيصر، حيث تم الاعتداء على عمته، وجلد والده في بقعة صغيرة على ضفاف نهر الفولجا الروسي.

وهنا لم أستطع مقاومة التعليق: «ولكن ألا تعتقد بأن الأناركيين اليهود قد تم التخلي عنهم قليلًا؟».

فأجابني:

«نعم.. ولا.

لقد نجحوا إلى حد ما، ولكنهم يستهدفون ما هو أكبر من المال، شيء لا يقدر بثمن، فبغريزة القتال القديمة لدى المرء، إذا كنت على وشك الموت، عليك تزييف علم ودولة كي تقاتل من أجلهم، وعندما تنجو فإنك تصدق الكذبة، تقع في حب ما زيفته، لقد عثر هؤلاء الشياطين الحمقى من الجنود على شيء يهتمون به، الأمر الذي أربك المخطط المحكم الذي يحاك في برلين وفيينا، ولكنهم لم يلعبوا بطاقتهم الأخيرة. وقد شمروا عن سواعدهم الآن استعدادًا لذلك، وإن لم أتمكن من البقاء على قيد الحياة لمدة شهر فسوف يلعبونها، وحتما سيفوزون».

فتابعته بقولي:

«ولكنني ظننت أنك ميت بالفعل..

فابتسم متمتمًا باللاتينية: «وما الموت إلا بوابة للحياة».

تعرفت على اقتباسه فهو كل ما أعرفه من تلك اللغة..

فاستكمل: «سأفسر لك ذلك لاحقًا، ولكن علي إعلامك أولًا بالكثير من الأشياء، فإذا كنت قد أنهيت قراءة تلك الصحيفة فيمكنني التخمين بأنك على دراية باسم «قسطنطين كاروليديس»، أليس كذلك؟».

صدقت على ذلك، نظرًا لأنني كنت أقرأ عنه بعد ظهر هذا اليوم بالفعل.

فشرع في وصفه قائلاً: «إنه الرجل الذي أحبط كل ألاعيبهم، العقل المدبر الوحيد في الصورة بأكملها، كما يصادف كونه رجلًا صادقًا، لذلك فقد وضع على لائحتهم خلال الاثني عشر شهرًا الماضية، وهو أمر ليس من الصعب توقعه، فأي أحمق يمكنه تخمين ذلك، لكنني توصلت للطريقة التي سينالون منه بها، وتلك المعلومات ثمنها الموت، لذا فمن المفترض أن أكون ميتًا»..

احتسى شرابًا آخر أثناء الحديث، وقد أعددت له مزيجًا بنفسي، حيث بدأت أولي اهتمامًا حقيقيًّا لذلك الفتى.

الذي واصل: لن يستطيعون الإيقاع به في عقر داره، فلديه من الحراس الأشداء الذين لن يتوانوا عن تقطيعهم إربًا إذا حاولوا المساس به، ولكنه سيأتي إلى مدينتنا هذه في الخامس عشر من شهر يونيو، حيث تقيم وزارة الخارجية البريطانية حفلات الشاي على مستوى دولي، وستكون الحفلة الأكثر أهمية في ذلك اليوم، على أن يكون «كاروليديس» هو الضيف الرئيسي، ولو تمكن أولئك المتآمرون من الوصول إليه، فلن يعود أبدًا إلى محبيه من أبناء الوطن».

فقاطعته: يبدو لي الأمر بسيطًا للغاية، فعلى أية حال يمكنك إنذاره بالأمر كي يبقى في وطنه فحسب».

فسألني بحدة: وأشترك في لعبتهم؟!

إذا لم يأتِ سوف يحققون انتصارًا، فهو الرجل الوحيد القادر على حل العقد، وإذا تم تنبيه حكومته فلن يأتي، كونه لا يعلم خطورة تبعات ما سيحدث في الخامس عشر من يونيو».

قلت له: وماذا عن الحكومة البريطانية؟ قطعًا لن يسمحوا بأمر كاغتيال ضيوفهم، قم بإعلامهم، ولسوف يتخذون احتياطات إضافية».

فأجابني: لن يكون هذا مفيدًا، يمكنهم حشو مدينتك كاملة بمخبرين في ملابس مدنية ويضاعفون عدد رجال الشرطة، ولسوف يظل قسطنطين في خطر في جميع الأحوال.

أصدقاؤنا هؤلاء لا يمزحون، فهم في انتظار الوقت المناسب للانطلاق في مناسبة من شأنها أن تجذب أنظار أوروبا كلها، سينفذ قتله رجل نمساوي، وسوف تخرج أدلة مزيفة لشعبي فيينا وبرلين للتستر على الجريمة، بالطبع ستكون تلك الكذبة جهنمية، مما سيجعل القضية غامضة بما فيه الكفاية للعالم بأسره».

«أنا لا أتحدث عن جهل يا صديقي، لقد علمت كل التفاصيل التي أحيكت بمصير أقرب إلى الجحيم، حيث سيكون ذلك هو المخطط الأكثر إحكامًا على الإطلاق، ولكنهم لن يبلغوا مرادهم هذا إذا ما أوقفهم رجل يعرف جيدًا خبايا الأمور التي ستحدث في لندن في الخامس عشر من شهر يونيو، وهذا الرجل هو أنا فرانكلين ب. سكودر».

كان إعجابًا قد نما لدي تجاه ذلك الأنيق ذي الفم المطبق كمصيدة فأر، والذي يمتلك عينين ثاقبتين تلمع فيهما نيران المعركة، فحتى وإن كان ينسج لي خيوطًا زائفة فأعتقد أنه نجح تمامًا في ذلك، وهنا سألته:

«من أين علمت بتلك القصة؟».

فأجابني:

«تحصلت على اللمحة الأولى وأنا في نزل على بحيرة (آخن سي) في (تيرول) في النمسا، الأمر الذي طرح العديد من التساؤلات في عقلي، ومن ثم جمعت الدلائل الأخرى في متجر لمعاطف الفراء في «الحي الجاليثي» بإسبانيا، ثم في ملهى للغرباء يقبع في «فيينا». وأخيرًا وليس آخر في مكتبة صغيرة خارج «راكنيتزتراتشي» في «لايبزيج» بألمانيا، حتى توصلت للدليل الكامل منذ عشرة أيام وأنا في باريس، لا يمكنني إخبارك بالتفاصيل الآن فقد جار عليها الزمن، ولكن عندما تأكدت من كل الأمور تمامًا، فقد أنهيت عملي هناك واختفيت.

ووصلت إلى هذه المدينة في رحلة غريبة، فقد غادرت باريس شابًّا فرنسيًّا أمريكيًّا حسن المظهر، بينما أبحرت من «هامبورغ» وأنا تاجر يهودي للماس، أما في «النرويج» فقد كنت طالبًا إنجليزيًّا في «إيبسن» جاء لجمع المواد العلمية للمحاضرات، ولكن عندما غادرت «بيرجن» كنت رجلاً سينمائيًّا مولعًا بأفلام خاصة برياضة التزلج، حتى أتيت إلى هنا قادمًا من «ليث» الإسكتلندية، وبجعبتي سيل من الافتراضات لطرحها أمام الصحف اللندنية، حتى أمس كنت أشعر بأنني أسير على الدرب الصحيح وكنت سعيدًا بما توصلت إليه، ثم...

توقف وكأن استجماع الكلمات أصبح عسيرًا عليه، شرب المزيد من الويسكي، واستكمل:

... ثم رأيت رجلًا يقف في الشارع خارج تلك البناية، بالنسبة لي فقد بت معتادًا على البقاء في غرفتي طوال اليوم، إلا أنني أتسلل في الظلام لمدة ساعة أو ساعتين، ظللت أراقبه قليلًا من خلال نافذتي، حتى تعرفت عليه، رأيته يتحدث مع حامل الحقائب، وعندما عدت في الليلة الماضية وجدت بطاقة في

صندوق الرسائل الخاص بي تحمل اسم الرجل الوحيد على وجه الأرض الذي لم أرغب يومًا في لقائه».

أعتقد أن النظرة التي كانت في عينيه وهو يحكي، والخوف البادي على تعابير وجهه قد ساهما في إقناعي بصدقه، حتى احتدت نبرة صوتي وسألته عما فعل بعد ذلك.

فأجابني قائلًا: «كنت قد أيقنت أنني أصبحت محاصرًا كسمكة رنجة داخل برطمان التخليل، ولم يكن أمامي سوى طريقة واحدة للخروج، وهي أن أموت، فإذا علم مطارديني أنني قد لقيت حتفي سيسكنون مرة أخرى».

فجاء سؤالي: «كيف تمكنت من فعل ذلك؟».

وجاء رده: «أخبرت الرجل الذي يأتي لخدمتي أنني لست على ما يرام، وحاولت أن يبدو وجهي كوجه رجل يصارع الموت، لم يكن ذلك صعبًا، بالنسبة لشخص بارع في التنكر مثلي، ثم تحصلت على جثة حيث يمكنك دائمًا الحصول على جثة في لندن إذا قصدت المكان المناسب لذلك فحسب، استطعت جلبها إلى منزلي على متن مركبة رباعية، وكان عليّ الادعاء بأنني بحاجة إلى من يساعدني للصعود إلى غرفتي، فكما ترى كنت أود ترك أدلة كافية للطبيب الشرعي. وبالفعل، ذهبت إلى الفراش وناديت ذاك الرجل كي يوقن أنني تحت تأثير مخدر يدفعني للنوم، ثم أمرته بالخروج، أراد أن يجلب لي طبيبًا، لكنني أصريت على رفضي مبررًا بأنني لن أطيق ذلك، وعندما تركني وحدي بدأت في تزييف مكان للجثة لتبدو كأنها أنا، كان في نفس حجم جسدي تمامًا، أخمن أنه قد نفق بفعل جرعات مكثفة من الكحول، لذلك فقد تركت زجاجة مشروب في يده وفي بعض أنحاء المكان، كان فكه هو الثغرة الوحيدة في الشبه بيننا، لذلك قررت تفجيره بسلاح ناري، أراهن على أن شخصًا ما غدا سيقسم بأنه سمع صوت طلقة، إلا أنه لا يوجد جيران في الطابق الذي أسكنه، لذا فقد جازفت بذلك الأمر.

تركت الجثة في الفراش مرتدية منامتي، فيما كان السلاح ملقًى على ملابسي إضافة إلى فوضى عارمة تملأ المكان، ثم ارتديت أنا بدلة ما كنت أبقيها لحالة طارئة كهذه، ولكنني لم أجرؤ على الحلاقة خوفًا من ترك آثار قد يتتبعها أحدهم. علاوة إلى ذلك، لم يكن الأمر ليساعدني في محاولتي للتسلل إلى الشارع، أبقيتك في ذهني طوال اليوم، ولم أملك خيارًا سوى الاستغاثة بك، ظللت أراقب الأجواء من نافذتي حتى رأيتك عائدًا إلى المنزل، ومن ثم فقد دلفت إلى الدرج لمقابلتك.. وها نحن يا سيدي، أنت تعلم باقي القصة».. قالها مختتمًا هكذا بأعين متسعة مثل البومة، أعصاب متهدجة وتحد تغلب عليه حالة يأس.

في ذلك الوقت بالتحديد كنت قد أيقنت تمامًا أنه لم يكن يراوغني من البداية، كانت حكايته هي الأكثر جموحًا على الإطلاق، ولكنني كنت قد استمعت إلى العديد من تلك الحكايات التي تبين بعد ذلك أنها حقيقية، وكنت قد اعتدت أن أصدر حكمي على الراوي لا القصة، فإذا ما كان هذا مجرد غريب يود شغر مكان في شقتي ليقوم بنحر عنقي، لكان قد فعلها، فقلت له:

«سلمني مفتاحك، وسألقي نظرة على الجثة، اعذرني على رغبتي في الاحتياط، ولكن يجب عليّ التحقق مما قلت ولو قليلًا قدر استطاعتي».

هز رأسه في أسى:

«لقد حسبت حساب طلبك هذا، لكنني لا أملك المفتاح، فهو في ميداليتي على طاولة الملابس، اضطررت إلى تركه هناك، فلم أستطع تجاهل أي أدلة من شأنها أن تثير الشكوك، فالنبلاء الذين يسعون خلفي يملكون أعين شديدة الدقة».

سيتوجب عليك أن تثق فيّ لهذه الليلة، وغدًا سأمنحك دليلًا يمكنك التحقق به من أمر الجثة جيدًا.

فكرت لثانية أو ثانيتين ثم أجبته:

«حسنًا، سأثق بك الليلة فحسب، ولكنني سأبقيك في هذه الغرفة وأحتفظ بالمفتاح، وليكن في علمك يا سيد «سكودر» أنا أعتقد أنك رجل مستقيم محق في حديثك، ولكن إن تبين لي خلاف ذلك، فلست بحاجة إلى إنذارك أنني رجل مسلح».

فلاحقني باستجابة سريعة:

«بالتأكيد» لم أنل شرف معرفة اسمك يا سيدي، لكن دعني أخبرك بأنك رجل نقي، سأكون شاكرًا إليك إن أعرتني شيفرة حلاقة».

فأخذته إلى غرفة نومي، وتركته على راحته، وفي غضون نصف ساعة، خرج عليّ كائنٍ لم أستطع التعرف عليه سريعًا، فقط عيناه الجائعتان كانتا نفسيهما، شحذ لحيته ليبدو وجهه نظيفًا، وشعره مفترقًا من أوسطه، وكان قد أحدث قطعًا في حاجبيه، ومن ثم فقد حمل نفسه مشيًا كما لو كان مدربًا على هذا، حتى أن مواصفاته كانت نموذجية لذلك، بشرته البنية وكأنه أحد الضباط الإنجليز الذين كان لهم باع طويل في الهند، كما ارتدى نظارة أحادية العدسة ليلصقها بإحدى عينيه، فاقدًا أي تأثير أمريكي طغا عليه مسبقًا.

تلعثمت مخاطبًا إياه:

«سيد سكودر! قبعتي!»

فعدّل علي قائلًا:

«ليس سكودر، بل الكابتن «ثيوفيليس ديجبي»، من جنود الجوركا الأربعين، أقضي إجازتي في الوقت الحالي، سأكون شاكرًا إليك إن تذكرت ذلك جيدًا يا سيدي».

أعددت له فراشًا في غرفتي الخاصة التي أدخن سجائري بها بينما استلقيت على أريكتي، ينتابني شعور بالبهجة لا يقارن بما كنت عليه طوال الشهر الماضي، فقد بدأت الأحداث تأخذ طريقها إليّ حتى في هذه المدينة الهادئة.

استيقظت في صباح اليوم التالي على صوت «بادوك» الرجل الذي يقوم بخدمتي وهو يصنع جلبة محاولاً فتح الغرفة، يعد «بادوك» زميلًا لي قد قدمت له معروفًا فحسب حتى أصبح خادمي بمجرد أن خطت قدماي إنجلترا، كان يملك هبة التحدث بثقة وأريحية توقع الناس في حبه، لم يكن جيدًا من ناحية تسيير الأعمال، ولكنني كنت أعلم جيدًا أنني بإمكاني الاعتماد على ولائه.

قلت له:

«بادوك! أوقف هذه الضجة! هناك صديق لي بالداخل! إنه كابتن..! كابتن..!»

نسيت الاسم الذي أخبرني إياه سابقًا..

فأخبرته سريعًا: أحضر إفطارًا لشخصين، ومن ثم عد لنتحدث».

نسجت لـ«بادوك» قصة لا بأس بها عن صديقي ذي الشأن المهم في مكانه، وكيف أنه يمر الآن بحالة سيئة للغاية جراء العمل الزائد، لذا فقد جاء ساعيًا للراحة والسكون المطلق، ولا يجب أن يعلم أحد بتواجده هنا، وإلا ستطارده الاتصالات القادمة من مكتب الهند ورئيس الوزراء وسوف يفسدون سعيه للتعافي، يتحتم عليّ الاعتراف بأن «سكودر» هو الآخر قد أدى دوره ببراعة، فعندما خرج لتناول الفطور رمق «بادوك» بنظاراته متفحصًا، تمامًا كضابط بريطاني، سأله عن حرب البوير، وتبادل معي أحاديث جانبية حول زملائنا الخياليين، ورغم أن «بادوك» لم ينادني يومًا بسيدي إلا أنه دعا «سكودر» بذلك تلقائيًا، وكأن حياته تعتمد على ذلك.

تركته مع الجريدة وصندوق من السيجار، ونزلت إلى المدينة حتى وقت الغداء، ذهبت للمكان الذي وصفه «سكودر»، وهناك استقبلني الرجل الجالس أمام المصعد بنظرة جدية قائلاً: «لقد وقع حادث بشع هذا الصباح يا سيدي، فقد قتل الرجل المهذب ساكن الغرفة رقم ١٥ بطلقة أرسلته لمصير الموت، حيث أخذوا جثته للمقابر لتوهم، والشرطة هناك الآن».

صعدت إلى الشقة رقم ١٥ تلك، حتى تراءى إليّ اثنان من الكلاب البوليسية ومفتش يقوم بأعمال المعاينة، قمت بطرح بعض الأسئلة وسرعان ما أجبروني على المغادرة، ومن ثم خرج عليّ خادم «سكودر» الذي بدا لي طبيعيًّا لا يحمل شكوكًا تجاه أي شيء، فقد كان يواصل النحيب بوجه جنائزي، في حين أن نصف فرانك كان من شأنه أن يعزيه، حضرت التحقيق في اليوم التالي، لأجد شخص ما من إحدى دور النشر بعدما علم بوجود أدلة تفيد بامتلاك المتوفى بعضًا من الملاحظات المكتوبة، والتي قد تخبرنا ماهيته كعميل أمريكي.

أقرت هيئة المحلفين بأنها حالة انتحار لشخص غير كامل القوى العقلية، وسلمت الأحراز القليلة التي تم التحصل عليها إلى القنصل الأمريكي للتعامل معها، أعطيت لـ «سكودر» كل التفاصيل المتعلقة بتلك القضية، والتي أثارت اهتمامه بشدة جعلته يتمنى لو كان بإمكانه حضور التحقيق، كما انتابه قدر الإثارة نفسه عندما قرأ نعيه.. بهدوء تام قضى معي أول يومين في تلك الغرفة، يقرأ قليلًا ويدخن قليلًا، ويدون بعض الخواطر في دفتر ملاحظات، حتى أننا اعتدنا لعب الشطرنج في كل ليلة، والتي كان يهزمني فيها دومًا، أعتقد أنه كان يحاول معالجة توتره الدائم كي يعود سليمًا، فقد مر بوقت

عصيب. ولكن في اليوم الثالث، بدا وكأن القلق عاد يساوره من جديد، حيث أعد رزنامة للأيام حتى يوم ١٥ يونيو، وبقلم أحمر أعطى كل يوم منهم علامة وتعليقًا مختصرًا ضد المتآمرين.

دائمًا ما كنت أجده غارقًا في أفكاره، بعينيه ذات النظرة الحادة بحيث تكادان تخرجان من جوفيهما، وبعد فترات التأمل تلك تملكه شعور شديد باليأس، ثم أشهد عودته الانفعالية مرة أخرى، كانت أذناه تلتقط أقل أصوات الضوضاء، وكان يواصل سؤالي إذا ما كان بإمكاننا الوثوق بـ«بادوك» أم لا، وربما مرة أو اثنتين أصبح حاد الطباع، واعتذر لي عن ذلك، ولكنني لم أستطع لومه، فقد سمحت له بكل شيء، تقديرًا لانخراطه في عمل شاقٍ كهذا، لم تكن سلامته الشخصية هي ما يشغل باله بل نجاح مساعيه، كان رقيقًا نظيفًا لا غبار عليه.. حتى جاءت ليلة حدثني فيها بصوت مهيب قائلاً:

«انصت، هاناي، أعتقد أنه يتوجب عليّ الاعتماد عليك بشكل أكبر في تلك المهمة.. أكره أن أغادر ساحة المعركة هكذا دون أن أترك شخصًا آخر يكمل ما بدأته».

وشرع يشرح لي تفصيلاً ما حكاه لي مسبقًا بشكل غامض، فلم أستطع إعارته كامل انتباهي، في الحقيقة كنت مهتمًّا بمغامراته أكثر من اهتمامي بالسياسة العليا، فوفقًا لما اعتقدته فإن «كاروليديس» وشئونه لا تخصني في شيء، تركتها له هو فحسب، لذلك كان الكثير مما يقوله يخرج سريعًا من ذاكرتي، ولكني أتذكر كيف كان أكيدًا أن الخطر سيبدأ مساره فور وصول «كاروليديس» إلى لندن، ولسوف يأتي ذلك الخطر من الأوساط العليا التي لن تصبح أبدًا في أي مجال للشك.

كما جاء على ذكر امرأة تدعى «جوليا سيشيني» وكونها على علاقة بذلك المخطط، استنبطت أنها ستكون الطعم الذي يتلخص دوره في تجريد «كاروليديس» من طاقم حراسته، وتحدث أيضًا عما دعاهم «البلاك ستون» ورجل متلعثم، ووصف بشكل خاص شخصًا ما لم يشر إليه من قبل دون أن يرجف، رجل طاعن في السن يمتلك صوتًا شبابيًّا وعيناه تطبقان على بعضهما البعض كالصقر.

تحدث كثيرًا عن الموت وكان تواقًا لنجاح مهمته، إلا أنه لم يعر أي اهتمام لحياته.

ثم قال: «أعتقد أنه يمكنني وصف الأمر بشعور الخلود للنوم عند الإحساس بالتعب الشديد، ومن ثم الاستيقاظ لاستقبال يوم صيفي برائحة العشب المجفف تقطع طريقها نحو النافذة، كنت قد اعتدت أن أشكر الله على صباح هكذا دائمًا في بلاد الحشائش والعشب الأزرق الإفريقية، وأعتقد أنني سوف أشكره أيضًا عندما أستيقظ في الجانب الآخر من الكرة الأرضية، في الأردن على سبيل المثال».

في اليوم التالي كان سكودر أكثر بهجة، بينما لازال يقرأ قصة حياة «ستونوول جاكسون» أغلب وقته، خرجت لتناول العشاء مع مهندس توجب عليّ رؤيته بغرض مناقشة بعض الأعمال.. وعدت في تمام الساعة العاشرة والنصف، في موعدنا المتفق عليه للعب الشطرنج قبل أن تتبدل الأمور، حيث كان سيجاري في فمي، وبينما أدفع باب الغرفة، لم تكن الأضواء مشتعلة، الأمر الذي بدا لي غريبًا، تساءلت إذا ما كان سكودر قد آوى إلى الفراش بالفعل، فأشعلت الضوء وتبين أنه لم يكن هناك أي أحد، ثم تراءى لي شيء ما في زاوية بعيدة دفعني لإلقاء سيجاري وأغرقني في قطرات العرق الباردة، كان هو، ضيفي مستلقيًا على ظهره، بينما سكين طويل قد اخترق قلبه فأسقطه أرضًا هكذا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل الثاني

بائع الحليب يبدأ رحلاته

جلست على مقعدي ينتابني شعور بالإعياء دام قرابة الخمس دقائق، تابعته نوبة من الذعر، فوجهه الأبيض الباهت ذو العينين المحدقتين مستلقيًا على الأرض هكذا كان أكثر مما يمكنني تحمله، حتى تمكنت من إحضار غطاء الطاولة لتغطيته وترنحت رغمًا عني إلى أن استندت إلى الخزانة، وجدت شراب البراندي وتجرعت منه حتى امتلأت معدتي تمامًا، شهدت رجالًا يلقون حتفهم بعنف من قبل، حتى أنني تسببت في قتل بعضهم بنفسي أثناء حرب ماتابيلي بزيمبابوي، ولكن أسلوب الاقتحام والقتل بدم بارد هكذا كان مختلفًا. ورغم ذلك فقد تمكنت من استجماع شتات نفسي، ألقيت نظرة على ساعتي، والتي كانت تشير نحو العاشرة والنصف، شرعت أجوب الشقة ولكن لم يكن هناك أحد، ولا حتى أثر لوجوده من قبل، فأحكمت إغلاق جميع النوافذ ووضعت الأصفاد على الباب.

وبحلول الوقت، بدأت أستعيد دهائي، وتمكنت من التفكير مجددًا، استغرق الأمر مني قرابة الساعة كي أتوصل لحقيقة ما جرى، ولم أتعجل ذلك طالما لم يكن القاتل عاقدًا نيته على العودة، فاستسلمت لتخميناتي حتى الساعة السادسة صباحًا إلى أن باتت الحقيقة جلية في ذهني، وأي ذرة شك في قصة سكودر قد تبددت تمامًا، فدلالة ذلك كانت قابعة أمامي تحت غطاء الطاولة القماشي، إذ إن الرجال الذين يعلمون قدر ما توصل إليه عنهم ها هم قد وجدوه، واتخذوا أفضل طريق لضمان صمته. أجل؛ ولكنه سكن غرفتي تلك لأربعة أيام، ولا بد أن أعداءه على يقين بأنه قد وضع ثقته فيّ، لذلك سأكون ثاني من يسعون خلفه كي ينالوا منه.

قد يحدث ذلك متأخرًا في نفس الليلة، أو في اليوم التالي، أو في يوم ما يليه، ولكن اسمي قد أدرج على لائحتهم، ثم فكرت في احتمال آخر، لنفترض أنني خرجت الآن واستدعيت الشرطة، أو أنني أويت إلى الفراش وتركت «بادوك» يجد تلك الجثة فيستدعيهم هو في الصباح، فما نوع القصة التي عليّ أن أحكيها عن «سكودر»؟ فقد اختلقت كذبة عن حقيقته لبادوك، وسيبدو كل شيء الآن مشكوكًا به، فلو أخرجت ما بجعبتي وأخبرت الشرطة بكل ما قصه علي، لسوف يسخرون مني، بل من المؤكد أنهم سيتهمونني بالقتل، إذ تتوافر أدلة كافية لشنقي، بالإضافة إلى أن علاقاتي في إنجلترا محدودة، لذا ليس لدي رفيق حقيقي يمكنه أن يشهد لصالحي، ربما كان هذا ما يحيكه هؤلاء الأعداء الغامضون.

فقد كانوا يملكون من الدهاء ما يكفي لأي شيء، والزج بي في السجون الإنجليزية ما هي إلا طريقة ممتازة للتخلص مني حتى يوم الخامس عشر من يونيو، علاوة على ذلك فإن حاولت قص الحكاية كاملها وبمعجزة ما قد تم تصديقي فلن أصبح إلا شريكًا في ألاعيبهم، حيث سيبقى «كاروليديس» حينها في وطنه وهو جلّ ما يرغبون به. بطريقة أو بأخرى، فإن مراقبة وجه «سكودر» هكذا وهو متوفى قد جعلتني من أشد المؤمنين بمخططه الذي كان يسعى إلى تنفيذه، لقد رحل، لكنه أخذني على محمل الثقة، لذا فأنا ملزم تمامًا بمواصلة عمله.

قد يعتقد البعض أنه لقرار أحمق من رجل معرضة حياته للخطر، ولكنها كانت الطريقة الوحيدة التي رأيت بها الأمور، أنا من نوع الناس العاديين، لا أمتلك جسارة زائدة عن الآخرين، لكنني أكره رؤية

رجل صالح يسقط هكذا، فلن يكتب ذلك السكين فصل نهاية «سكودر» إذا ما تمكنت من استكمال اللعبة بدلاً منه. استغرق الأمر مني ساعة أو اثنتين كي أخرج بتلك النتيجة، واتخذت بمرور الوقت قرارًا فعليًّا، حيث إنه عليّ الاختفاء بطريقة ما، وأظل متواريًا هكذا حتى نهاية الأسبوع الثاني من شهر يونيو، ومن ثم عليّ إيجاد طريق كي أتواصل مع رجال الحكومة كي أتلو عليهم كل ما أخبرني به «سكودر»، تمنيت حينها لو أنه قد أخبرني المزيد، أو لو أنني أنصت جيدًا للقليل الذي أخبرني به، لم أكن أعرف شيئًا سوى مجرد حقائق ربما تكون ظاهرة للعيان.

كانت هناك مجازفة كبيرة بذلك القرار، فحتى لو نجحت في تجاوز الأخطار الأخرى لن يصدقني أحد في النهاية، يجب علي أن أغتنم الفرصة آملًا أن يحدث شيء من شأنه تأكيد روايتي في نظر الحكومة، كانت مهمتي الأولى هي الاستمرار في نفس المخطط خلال الأسابيع الثلاثة القادمة، فإذا كان اليوم يوافق الرابع والعشرين من شهر مايو، فهذا يعني أن أمامي عشرين يومًا من الاختباء قبل أن أغامر بالدنو من أي شيء. أعتقد الآن أنني مطلوب من قبل جهتين ستسعيان للبحث عني، أولاهما: أعداء «سكودر» الذين يستهدفون محوي من الوجود، ورجال الشرطة الذين سيرغبون في التحقيق في مقتل «سكودر»، فالأمر على وشك أن يصبح مطاردة مسببة للدوار في تفاصيلها، وكان غريبًا مني أن أشعر براحة حيال كل هذا الغموض، لقد بت مسترخيًا لفترة طويلة، الأمر الذي سيجعل أي فرصة لعودة النشاط مرحبًا بها، فعندما اضطررت إلى الجلوس وحيدًا هكذا مع تلك الجثة في انتظار مصيري، لم أشعر سوى بكوني شخصًا جديرًا بالازدراء، ولكن إذا كانت حياتي ستعتمد على قدر الذكاء الذي أملكه فحينها فقط يمكنني الشعور بالبهجة.

أما ثان ما قفز في ذهني فهو إذا ما كان لدى «سكودر» أية أوراق من شأنها أن تعطيني مفتاحًا نحو حل اللغز، وهنا توجهتُ كي أزيل غطاء الطاولة وفتشت جيوبه، إذ زالت انقباضة خوفي من ملامسة جسده، كان وجهه هادئًا بصورة تدفعك للتساؤل نسبة إلى رجل قد تم إسقاطه أرضًا في لحظتها، لم يكن هناك أي شيء في جيبه العلوي سوى القليل من العملات المعدنية المبعثرة وحاملة سيجار في صدريته، كما كان بنطاله يحوي مديات صغيرة وبعضًا من الفضة، وحافظة مصنوعة من جلد التمساح تسكن جيب سترته الجانبي، لم يكن هناك أي أثر للكتيب الأسود الذي لطالما شهدته يدون الملاحظات به، مما لا شك فيه أنه قد أخذ من قبل قاتله، فعندما واصلت البحث للتأكد رأيت أن بعض الأدراج في طاولة الكتابة قد تم سحبها للخارج بالفعل، لم يكن «سكودر» ليتركهم في مثل هذه الحالة، كونه كان أكثر البشر تنظيمًا، من المؤكد أنها من فعل شخص ظل يبحث عن شيء ما، ربما ذلك الكتيب.

وحينها تجولت لأجد أن كل شيء قد تم تفتيشه بدقة، داخل الكتب، الأدراج، الخزائن، الصناديق، وحتى جيوب ثيابي في خزانة الملابس، إضافة إلى دولاب التخزين الجانبي في حجرة الطعام، لم يكن هناك أي أثر للكتيب، على الأرجح فقد وجده هؤلاء المتآمرون، لكنهم لم يعثروا عليه سوى بعد إنهاء حياته.

أخرجت أطلس خرائط بعد ذلك وبحثت في خريطة كبيرة تتضمن الجزر البريطانية، إذ كنت أنتوي الفرار إلى إحدى المقاطعات البرية، والتي من شأنها أن تصبح مأوى جيدًا بالنسبة لي، لأنني سأكون

مثل الفأر المحاصر إذا قصدت المدينة، وقد تراءى لي أن اسكتلندا تعد خيارًا أمثل، نظرًا لكون عائلتي اسكتلندية فبإمكاني الترجل في أي مكان بصفتي رجلًا اسكتلنديًّا عاديًّا.

جاءتني فكرة في البداية بأن أسير كسائح ألماني، إذ كان لوالدي شركاء ألمان، مما مكنني من تحدث تلك اللغة بطلاقة، ناهيك عن ثلاثة أعوام من العمل في التنقيب عن النحاس بمستعمرة «دامارا» التابعة لألمانيا، ولكني اعتقدت أن خروجي كرجل اسكتلندي من شأنه أن يبعد الأنظار عني، كما سيحد مما قد تعرفه الشرطة عن الماضي الخاص بي. استقريت على «جالاواي» كأفضل مكان يمكنني الذهاب إليه، إضافة إلى أنها تعد البقعة المنعزلة الأقرب من «اسكتلندا»، وبقدر ما استطعت معرفته من الخريطة فلم تكن مكتظة بالسكان، ومن ثم أطلعتني نتائج البحث على قطار سيغادر «سانت بانكراس» في الساعة السابعة وعشر دقائق، والذي سيصل بي «جالاواي» بدوره في وقت متأخر من بعد الظهيرة، كان ذلك جيدًا بما فيه الكفاية، ولكن الأمر الأكثر أهمية هو كيف سأتجه إلى «سانت بانكراس»، إذ كنت أكيدًا أن أصدقاء «سكودر» يراقبونني بالخارج، مما سبب لي الحيرة بعض الشيء، حتى خطرت لي فكرة استطعت الخلود للفراش على إثرها، ومن ثم حظيت بساعتين من النوم المليء بالقلق والاضطراب.

نهضت في تمام الرابعة، فتحت نوافذ غرفتي، حيث يغمر السماء ضوء النهار الخافت في أجواء صيفية، وتشرع العصافير في الزقزقة، حتى انتابني شعور مفاجئ بالنفور من كل هذا، شعور بالحمق إذ إنني كنت أود ترك الأمور على حالها والثقة في أن الشرطة البريطانية ستنظر إلى موقفي هذا بعين العدالة، ولكن بإعادة النظر في الوضع فلم أتمكن من العثور على أية حجة من شأنها أن تعدلني عن قراري فيما يخص الليلة الماضية، لذا فعزمت على أن أواصل خطتي، لم أكن أشعر بالجبن بأي حال من الأحوال، لكني لم أكن راغبًا في البحث عن المتاعب بلا أدنى شك.

فتشت عن بذلة مستعملة على نحو واضح، زوج من الأحذية المدببة، وقميص ذو ياقة، كما حملت آخر احتياطيًّا بالإضافة إلى قبعة قماشية، بعض المناديل وفرشاة أسنان، كنت قد سحبت مبلغًا جيدًا من المال منذ يومين مضيا تحسبًا لحاجة «سكودر» إليهم، فأخذت قرابة الخمسين جنيه إسترليني في حزامٍ جلدي أحضرته من «روديسيا»، وقد كان هذا جلّ ما أردته، اغتسلت، وهذبت شاربي الذي كان طويلًا متدليًا ليصبح في حالة أفضل.

ومن ثم استعددت للخطوة التالية:

اعتاد «بادوك» الوصول في تمام الساعة السابعة والنصف ليدخل بنسخته الإضافية من المفاتيح، وقبل ذلك بعشرين دقيقة ووفقًا لما عاهدته يظهر بائع الحليب خارجًا بينما يصحبه صوت تخبط الزجاجات كي يودع حصتي أمام المنزل، فقد تسنى لي رؤية بائع الحليب هذا في بعض الأحيان التي صادفت خروجي في وقت مبكر، كان شابًّا في نفس طول قامتي تقريبًا، ذا شارب غير متساو، بينما يرتدي ثياب عمله البيضاء بالكامل، والذي علقت عليه كل آمالي.

انتقلت إلى غرفة التدخين المعتمة التي تحاول أشعة الشمس التسلل من نوافذها، ثم تناولت فطورًا ببعض البسكويت وجرعات الويسكي والصودا إلى جانبه، وبمرور الوقت إذ كانت الساعة تقرب على السادسة، وضعت غليونًا في جيبي وعبأت حقيبتي من جرة التبغ التي تقبع على الطاولة إلى

جوار الموقد، وبينما أقحم يدي داخل التبغ لامست أصابعي شيئًا صلبًا، حتى خرجت بكتيب «سكودر» الأسود، مما بدا لي كفأل خير، فرفعت القماش الذي يغطي وجهه مندهشًا بالسلام الذي كان يسكنه قائلاً: «وداعًا أيها الغريب، سأبذل ما بوسعي من أجلك، تمنى لي التوفيق أينما تكون».

انتظرت بائع الحليب في الردهة بفارغ الصبر، وهو ما كان الفقرة الأسوأ من هذا العمل، فقد كدت أموت خنقًا لصعوبة الخروج من المنزل على نحو لائق. تجاوزت الساعة السادسة ونصف، ومنها إلى السادسة وأربعين دقيقة، لكنه لم يأت بعد، ذلك الأبله، فقد اختار ذلك اليوم من بين كل الأيام كي يتأخر.

وفي غضون دقيقة دقت تمام السابعة إلا ربع، والتقطت أذناي صخب تخبط الزجاجات في الخارج، فتحت الباب الأمامي، وإذا بالرجل الذي كنت أنتظره منشغلاً باختيار زجاجاتي الخاصة من بين مجموعة يحملها ويطلق صفيره المعتاد في الصباح، قفز متفاجئًا بعض الشيء عندما بات على مرأى مني.

فلاحقته بقولي:

«تعال هنا للحظة، أود التحدث معك قليلاً».

وبينما أقوده إلى غرفة الطعام استكملت حديثي:

«أحسب أنك رجل محب للرياضة، أريد منك القيام بخدمة من أجلي، أقرضني قبعتك، وثياب عملك هذه مدة العشر دقائق، وإليك تلك العملة مؤقتًا».

اتسعت حدقتا عينيه بمجرد رؤيته، وابتسم ابتسامة عريضة، تابعها سؤالاً بلكنته:

«ما هي اللعبة إذًا؟».

فأجبته:

«رهان».. «ليس لدي وقت لأشرح لك، ولكن كي تفز به عليّ أنا أن أقوم بدورك كبائع للحليب في الدقائق العشر القادمة، كل ما عليك القيام به هو البقاء هنا حتى أعود، ستتأخر قليلًا على مواصلة عملك، لكن أحدًا لن يتأذى جراء ذلك، وستتمكن من الاحتفاظ ببعض النقود لنفسك».

فتجاوب معي ببهجة:

«نعم، هذا صحيح! لست من نوع الرجال التي يمكن لأحد التلاعب معه، ها هي العربة إذًا، يا سيد».

فأسكنت رأسي داخل قبعته الزرقاء المنبسطة وثيابه البيضاء، ومن ثم التقطت علب الحليب، أغلقت الباب بقوة، وانطلقت أواصل الصفير نحو الطابق السفلي، حيث أمرني حارس العقار أن أغلق فمي، مما أكد لي أن تنكري كان وافيًا للمراد.

اعتقدت في البداية أنه لا يوجد أحد في الشارع، ومن ثم تراءى لي شرطي على بعد مائة ياردة مما أقف، ومتسكع يجر قدميه على الجانب الآخر، فيما تسلل إليّ دافع للنظر إلى المنزل المقابل، ليظهر

لي وجه خلال نافذة بالطابق الأول، عندما عبر ذلك المتسكع طريقه دقق الآخر نظره، وخيل لي أنهما قد تبادلا إشارة ما فيما بينهما، قمت بعبور الشارع مواصلًا الصفير بابتهاج أحاول تزييف إيقاع رجل الحليب، ثم انعطفت تجاه أول شارع جانبي، نحو اليسار قليلًا، مما قادني إلى منطقة شاغرة، فلم يكن هناك أحد في الشارع الضيق، لذلك استطعت إنزال زجاجات الحليب على سياج خشبي ووضعت القبعة والثياب من فوقها، كان عليّ ارتداء القبعة سريعًا مرة أخرى عندما مر ساعي البريد في الأرجاء، حييته قائلًا: «صباح الخير»، فأجابني ببضع كلمات غير واضحة، وفي تلك اللحظة دقت ساعة الكنيسة المجاورة تمام الساعة السابعة، لم يكن هناك ثانية لإهدارها، فحالما وصلت إلى طريق «يوستن»، تجردت مما يرفع قدماي من حذاء عال وركضت.

أعلنت الساعة في محطة «يوستن» عن انقضاء خمس دقائق أخرى، وعندما بلغت محطة أنفاق «سانت بانكراس» اللندنية لم يكن لدي وقت كاف لشراء تذكرة، ناهيك عن أنني لم أستقر على وجهتي بالفعل، أرشدني حامل حقائب على اتجاه الرصيف، وعندما وصلت رأيت القطار يتهيأ للحركة في مساره بالفعل، وهنا قد حاول اثنان من مأموري المحطة اعتراض طريقي، لكني نجحت في التهرب منهما واستقليت آخر عربة. وفي غضون ثلاث دقائق وبينما نجول نحو الأنفاق الشمالية، جاءني حارس ذو وجه غاضب ووجه إلي بعض الأسئلة، ثم حرر لي تذكرة إلى «نيوتن ستيوارت» وهو الاسم الذي قفز لذهني توًا، وقادني خروجًا من مقصورة الدرجة الأولى التي كنت مختبئًا بها إلى مقصورة الدرجة الثالثة والخاصة بالمدخنين، والتي كان يشغلها رجل يعمل بحارًا وسيدة بدينة مع طفلها، قمت بمسح قطرات العرق على جبيني سريعًا كي يقنع رفقائي الاسكتلنديين هؤلاء أن الأمر وما فيه أن لحاقي بالقطار كان عملًا شاقًّا فحسب، دخلت بالفعل الجزء المخصص لإقامتي به، فسمعت السيدة تعلق بنبرة لاذعة:

«يا للحماقة! ذلك الحارس! إنه بحاجة للسان اسكتلندي يباريه كي يعلم مكانته، بالطبع كان يتذمر لفقدان تفصيلة ما في التذكرة، أو أنها غير صالحة حتى شهر أغسطس، وكان يوجه اعتراضه تجاه ذلك الرجل الحزين».. فوافقها البحار في الرأي.

وبدأت حياتي الجديدة في مناخ من الاحتجاج على ما تتبعه السلطة من أفعال، وذكَّرت نفسي لَكَمْ كنت أجد هذا العالم مملًّا منذ أسبوع مضى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث

مغامرة الأديب مالك النزل

قضيت وقتًا مهيبًا أثناء سفرتي شمالًا هذا اليوم، إذ كان الطقس جيدًا في مايو، والسياج مزهرة بالنباتات البرية، حتى أنني تساءلت لما قضيت كل هذا الوقت في لندن ولم أحظَ بنعيم هذا البلد الذي يشبه الجنة، لمَ لمْ أفعل ذلك بينما كنت رجلًا حرًّا؟ لم أجرؤ على دخول مقصورة الطعام ولكني نجحت في الحصول على سلة مليئة بالأطعمة تشاركتها مع السيدة البدينة فور وصولنا إلى «ليدز»، حتى أنني تحصلت على الجريدة الصباحية التي احتوت على أخبار حول تحضيرات الديربي وانطلاقة موسم رياضة الكريكت([1]) وبعض الفقرات عن استقرار شئون البلقان والسرب البريطاني المتجه إلى «كيين»، وبعدما انتهيت من ذلك أخرجت كتيب «سكودر» وتفحصته، كان يعج بالملاحظات والشخصيات بشكل رئيسي، حيث وجدت أمامي كلمات كثيرة مكتوبة بشكل عشوائي لافت للنظر لا يفهم منه شيئ، مثل «هوفجارد، لونفيل، أفوكادو، قد كتبت في أغلب الأحيان، وكلمة مثل بافيا على نحو مختلف»، وقد كنت على يقين من أن «سكودر» لا يفعل أي شيء دون سبب، إذ كانت هناك شفرة ما، مما أثار اهتمامي، نجحت في حل القليل منها كوني كنت رجل استخبارات يومًا في خليج «ديلاجوا» في «موزمبيق» خلال حرب البوير([2])، لديّ باع في أشياء كالشطرنج والألغاز، ويمكنني الادعاء بكوني جيدًا في أمور كاكتشاف ما تخفيه الشفرات وهكذا. وقد بدا لي هذا النوع ككود رقمي يتكون من بعض الشخصيات التي ترمز لها ببعض الحروف الأبجدية، ولكن أي رجل حصيف يمكنه أن يجد الدليل الذي يربط الأمر خلال ساعة أو ساعتين من العمل، لكني لم أعهد في «سكودر» تلك السلاسة، لذا قمت بربط الحروف وأكوادها، حيث يمكنك الحصول على معنى متطابق، على كلمة رئيسية من شأنها أن تمنحك تسلسلًا للحروف. حاولت لساعات، ولكني لم أتحصل على إجابة، إلى أن غلبني النوم لأستيقظ في «دومفريس» في الوقت المخصص للتجمع بغرض الوصول إلى قطار جالواي البطيء جنوب غرب اسكتلندا، كان هناك رجل على رصيف المحطة لم أستسغ نظراته، وعندما تفحصت نفسي في مرآة بجواري أدركت السبب، فمع وجهي هذا، وحلتي القديمة، وتسكعي بطريقة خرقاء، كنت أعكس صورة نموذجية لأحد المزارعين العاملين في التلال بينما يتكدسون في عربات من الدرجة الثالثة. قضيت رحلتي مع عشرات من الرجال في طقس يعج بالغليونات الملطخة بالوحل، أثناء عودتهم من السوق التي تقام أسبوعيًّا، إذ كانت جميع أحاديثهم تدور حول الأسعار، فالتقطت أذناي قصصًا عن هروب النعاج من الأجران المخصصة لها، بينما يحتسي الآخرون مشروبات غير مألوفة بعض الشيء. أكثر من نصف هؤلاء الرجال قد تناولوا غداء دسمًا وامتلأت كئوسهم بالويسكي على نحو مبالغ فيه، لكنهم لم ينتبهوا لي أبدًا، كنا قد قطعنا ببطء طريق وديان منعزلًا ومنه إلى أراض خضراء واسعة، تتلألأ إلى جانب البحيرات، مع تلال زرقاء عالية تظهر شمالًا.

وفي حوالي الساعة الخامسة كانت العربة قد فرغت من الناس، وتركت وحدي كما كنت آمل، ترجلت في المحطة التي تلت ذلك والتي كانت مكانًا التقطت اسمه بالكاد، تموضعت دون أن أستطع اتخاذ خطوة أخرى، ذكرتني تلك بواحدة من أولئك المحطات الصغيرة المنسية في «كارو» بجنوب إفريقيا.

كان أحد نظار المحطة الطاعنين في السن منهمكًا في الحفر بحديقته، بينما تستند مجرفته إلى كتفه وتكاد تلامس القطار، إذ كان يعمل على زرع البطاطا في تلك البقعة من الأرض، جاءني طفل ذو عشر سنوات كي يفحص تذكرتي، وقد كانت تتراءى لي طريق سكني في مقاطعة تقودك إلى المدينة.

كانت أمسية ربيعية رائعة، مع كل تلة تظهر واضحة كحجر أرجواني لامع، بينما يعبأ الهواء برائحة غريبة، كرائحة جذور المستنقعات، ولكنها بدت باعثة على الانتعاش وكأنك في وسط محيط ما، الأمر الذي كان له تأثير على روحي المعنوية في ذلك الوقت، فقد شعرت بخفة القلب، شعرت كأحد الصبيان الذين يشدون الترحال للتسكع في عطلة الربيع، بدلًا من كوني رجلًا في السابعة والثلاثين مطلوب ضبطه وإحضاره من قبل الشرطة، شعرت كما لو أنني أشق طريقي في صباح متجمد نحو واحة عالية كي أشرع في قضاء وقتي، فقد ظللت أتأرجح طيلة الطريق مطلقًا الصفير. لم تكن لدي أي خطة تجاه تلك القضية سوى الاستمرار في نعيم هذا البلد ذي الرائحة الطيبة، فمع كل ميل خطته قدماي كانت تنتابني حالة مزاجية أفضل، وأثناء سيري هكذا بدأت الأجواء تتحول تدريجيًّا إلى كونها ضبابية، إذ وجدت نفسي قبالة طريق سريع غير محددة اتجاهاته، والذي بدا وكأنه يقودك نحو مجرى نهر ما ومنه لواد صغير، حتى أدركت كوني بعيدًا عن أي مطاردة محتملة في الوقت الحالي، حيث يمكنني أن أشبع سعادتي لهذه الليلة، مرت عليّ بضع ساعات دون تذوق أي مما يمت للطعام بصلة، كنت أشعر بالجوع الشديد عندما بلغت كوخًا يقبع في زاويةٍ جوار شلال ما، وامرأة ذات بشرة داكنة تقف قبالة الباب قامت المرأة بتحيتي بخجل قاطني تلك الأراضي الريفية النائية من الأرض.

وعندما سألتها إذا ما كان بوسعي الإقامة لهذه الليلة أجابتني بأنني مرحب بي للبيات في الدور العلوي، وسرعان ما وضَعتْ أمامي وجبة دسمة من اللحم، والبيض، والكعكات وبعضًا من الحليب الخام المحلى، عاد زوجها عند حلول المساء وكان عملاقًا نحيلًا فارع الطول، يمكننا قياس خطوة واحدة منه بثلاث خطوات مما قد يخطوها إنسان عادي، لم يوجهوا إليّ أية أسئلة، فقد كانوا بمثابة الزوج الأكثر تهذيبًا ضمن قاطني تلك الأماكن، لكنهم كانوا يرونني كأحد التجار، وعانيت قليلًا كي أثبت لهم صحة ما يرونه، إذ تحدثت عن المواشي التي لم يكن مضيفي يعرف عنها الكثير، كما أنني تحصلت على صفقة جيدة بالحديث معه حول أسواق جالاوي المحلية، والتي وضعتها في ذاكرتي لفائدة محتملة في المستقبل. بدأت أتثاءب في مقعدي عندما قاربت العاشرة، إلى أن آويت للفراش رجلاً منهكًا لم يفتح عينيه أبدًا حتى الخامسة من صباح اليوم التالي، رفضوا قبول أي نقود مني، وبحلول السادسة كنت قد تناولت الفطور وتوجهت جنوبًا مرة أخرى، كانت نيتي العودة إلى خط السكة الحديدية الذي يبعد محطة أو اثنتين من المكان الذي أقمت به أمس، ويبدو أنني سأعود إليه مجددًا، فقد ارتأيت أن هذا هو الطريق الأكثر أمانًا، لأن الشرطة ستفترض بطبيعة الحال أنني أفر دائمًا من لندن تجاه أحد الموانئ الغربية، ظننت أنني ما زلت في وضع جيد، كما قلت، فسوف يستغرق منهم بضع ساعات لإلصاق التهمة بي بطريقة أو بأخرى، وساعات للتعرف على الشخص الذي ارتحل على متن قطار في «سانت بانكراس»، كان الطقس يحمل نفس البهجة، طقسًا ربيعيًّا نقيًّا، إذ لم أتمكن ببساطة من التفكير فيما يحيط بي من هموم، حيث كنت في حالة معنوية أفضل مما كنت عليه منذ شهور، شرعت في طريقي على امتداد سلسلة التلال، متجهًا إلى حافة منهم يطلق عليها الناس كيرنزمور أوف فيت «أجران الأسطول».

كانت أعشاش الكروان والزقزاق نامية في كل مكان، بينما تعج المراعي الخضراء على طول مجرى النهر بصغار الحملان، حتى أن أي شعور بالضجر انتابني في الأشهر الماضية قد بدأ يتلاشى، انطلقت حينها كطفل في الرابعة من عمره نحو كومة من العشب الأخضر تنحدر كي تقودك إلى واد به نهر صغير، لأشهد دخان قطار على بعد ميل واحد من أراض يغطيها النبات الاسكتلندي. إنها المحطة، عندما وصلت إليها كانت مناسبة تمامًا لما أريد، تتدفق المستنقعات من حولها، ذات ممر جانبي ضيق، غرفة انتظار، مكتب، كوخ ناظر المحطة، وباحة صغيرة تحوي نباتات ونوعًا من أنواع القرنفل، لم يبد أن هناك طريقًا مؤديًا إليها من أي مكان، إذ تتسابق أمواج البحيرة لحاقًا بالشاطئ على بعد نصف ميل فحسب، انتظرت وسط تلك الشجيرات حتى ظهر لي في الأفق دخان قطار متوجه شرقًا، ومن ثم اقتربت من مكتب الحجز وحصلت على تذكرة ذهابًا إلى «دومفريس».

لم يكن في العربة سوى راع كبير السن، بصحبة كلبه الغاشم ذي العينين الواسعتين اللتين جعلتاني أرتاب، كان الرجل نائمًا، وعلى الوسائد بجانبه تقبع صحيفة «سكوتمان»، والتي شرعت أقرؤها بنهم آملًا أن تخبرني بشيء. كان هناك عمودان حول «جريمة بورتلاند» كما أطلقوا عليها، خادمي بادوك قد تم إحضاره فيما ألقي القبض على بائع الحليب. هذا المسكين، بدا كما لو أن عملته تلك قد فازت في اليانصيب، ولكن بالنسبة لي فكان ثمنًا زهيدًا لقاء ما فعله، في نهاية الأخبار وجدت حلقة إضافية من القصة، فقد أخلي سبيل بائع الحليب كما قرأت، أما عن المجرم الحقيقي والتي كانت تتحفظ الشرطة على هويته ففر من لندن من أحد الخطوط الشمالية. كان هناك ملاحظة قصيرة عني كمالك الشقة، والتي خمنت أن الشرطة أرفقتها بالقضية كوسيلة خرقاء لإقناعي بأنني لست مشتبهًا به، لم يكن هناك شيء آخر في الصحيفة، لا شيء عن السياسة الخارجية أو «كاروليديس» أو الأشياء التي كانت تحوز اهتمام «سكودر»، وهنا وضعتها ثانية، وتكشف لي أننا نقترب من المحطة التي خرجت منها بالأمس، ناظر المحطة الذي كان يحفر أرضه لزراعة البطاطا كان منشغلًا في أنشطة أخرى، فيما كان القطار المتجه غربًا ينتظر للسماح لنا بالمرور، والذي ترجل منه بالفعل ثلاثة رجال وبدءوا في توجيه الأسئلة إليه، افترضت كونهم من الشرطة المحلية بعدما تتبعوني قدر ما أمكنهم، تموضعت جلوسًا في الظل أراقبهم بعناية، كان واحد منهم يحمل كتيبًا ويدون به الملاحظات.

حتى شرع العجوز يحدثهم بفظاظة، جنبًا إلى جنب مع ذاك الطفل الذي واصل التحدث بصوت عال، بينما يتفحصون جميعًا الطريق الذي عدت منه لتوي، كنت آمل لو أنهم يتوهمون آثاري هناك.

وعندما ابتعدنا عن تلك المحطة كان رفيقي قد استيقظ، رمقني بنظرة خاطفة، ركل كلبه بتعنف، محاولًا أن يستذكر أين هو، كان أمرًا جليًّا كونه ثملًا إلى درجة كبيرة، فيما تفوه بملاحظة تحمل نبرة أسف مريرة قائلًا: «هذا ما يجلبه الإقلاع عن الخمر»، فظهرت ملامح الدهشة على وجهي بينما واصل متحديًا: «ولكني سأقلع وبقوة، تعهدت بذلك بينما أحتسي آخر كأس من المارتيني، ولم أقرب قطرة ويسكي منذ ذلك الحين، ولا حتى في ليلة رأس السنة، على الرغم من أنني كنت في حاجة لذلك».

بدأ يؤرجح حذاءه العالي على المقعد، ومن ثم دفس رأسه الأشعث داخل الوسادات، وتنهد: «وهذا هو ما حصلت عليه.. رأس أكثر اشتعالًا من الجحيم ذاته».

فسألته:

«ما سبب كل ذلك؟».

«مشروب يدعونه بالبراندي، ولكوني مقلعًا عن الشراب فأردت الحفاظ على ابتعادي عن الويسكي، احتسيت جرعات ضئيلة من ذلك البراندي، دون ذرة شك أنني سأقع فريسةً له طوال أسبوعين كاملين»، وهنا تحول صوته إلى غمغمة، ومن ثم عاد للنوم مرة أخرى باسطًا يده المُخدرة فوق رأسه.

كانت خطتي هي الترجل في محطة ما مغادرًا ذلك الخط، ولكن سرعان ما أعطاني القطار فرصة أفضل، دالفًا إلى طريق مسدود في نهاية نفق على امتداد نهر ملون، نظرت إلى الخارج وارتأيت أن نوافذ العربات جميعها كانت مغلقة ولم يظهر كائنًا في المشهد، فتحت الباب، لتسكن قدماي عقدة من أشجار البندق التي أحاطت بالقضبان، كان كل شيء ليصبح على ما يرام لولا وجود هذا الكلب الذي يحمل طباعًا شيطانية، فما إن حاولت الفرار بمتعلقات صاحبه إلا وبدأ في النباح، وأمسك بي من سروالي، الأمر الذي أيقظ الجمع ليتجمهروا أمام بوابة العربة في اعتقاد تام بأن هناك حادث انتحار قد ارتكب للتو، هرعت زاحفًا نحو الشجر، حتى وصلت إلى حافة مجرى النهر، وسرت مستظلًا بالشجيرات لحوالي مائة ياردة.

ومن ثم حدقت بنظري إلى الخلف لأرى عددًا من الركاب وهم مجتمعون أمام باب العربة المفتوح يدققون النظر ناحية الوجهة التي سرت إليها، رحلت بصخب لم أكن لأسببه إذا ما كنت أحمل بوقًا بصحبة فرقة بآلاتها المعدنية. ولحسن الحظ.. فذلك السكير قد أمدنا بتحول جديد في الحكاية، إذ تدافع هو وكلبه الذي كان مقيدًا بحبل يصل لخصره خروجًا من العربة لتستقر رءوسهم على طريق السكة الحديدية وظلا يتدحرجا هكذا في كومة تجاه المياه.

بدا ذلك وكأنه رد فعل لمحاولة عض الكلب لشخص ما هناك، حيث التقطت أذناي صوت صراخ قوي، الأمر الذي جعلني أدرك أنهم تناسوني في وقتها، وبعد زحفي لربع ميل شاهدت تحرك القطار من جديد حتى تلاشى ظله في قصاصات الشجر، بينما كنت قابعًا في بقعة واسعة من المستنقعات، ونهرا يأخذ شكل الزند في انحناءة، بينما تشكل التلال العالية محيطًا دائريًّا ناحية الشمال.

لم تكن هناك أي إشارة أو صوت يدل على وجود إنسان، فقط هدير المياه وتغريد الكروان اللذان يتواصلان دون توقف. ورغم ذلك، فقد انتابني شعور الرهاب بكوني مطاردًا للمرة الأولى، لم ألقي بالًا للشرطة، بل للأناس الآخرين الذين على علم بأنني أعرف سر «سكودر» ولن يسمحوا لي ببقائي حيًّا، كنت على يقين تام من أنهم سيتعقبونني بكل حذر وبكل الطرق المنافية للقانون البريطاني، وبمجرد إحكام قبضتهم عليّ فلن ألقى أي رحمة.

نظرت خلفي، لكن لم يكن هناك شيء في الصورة سوى أشعة الشمس التي تتلألأ على حديد القضبان والأحجار الرطبة في مجرى النهر، فلا يمكنني وصف مشهد أكثر سلامًا من ذلك في العالم، وبالرغم من ذلك فقد شرعت في مواصلة الركض، ركضت بانحناءة إجبارية على الدرجات التي تجاور

المستنقع، ركضت بينما يحجب العرق أي فرصة للرؤية عن عيني، ولم تغادرني تلك الحالة إلى أن بلغت حافة الجبل وطرحت نفسي أرضًا لاهثًا على نتوء عال فوق مياه النهر.

ومن زاوية رؤيتي تلك، كان بإمكاني تفحص البقعة بأكملها بداية من خط السكك الحديدية إلى جنوبها، حيث كانت تغطيها الحقول الخضراء، كان لدي عيون كالصقر، ولم أتمكن من رؤية أي شيء يتحرك في الريف بأكمله، ثم توجهت بنظري شرقًا إلى ما وراء التلال لأرى نوعًا جديدًا من الوديان الضحلة ذات المناظر الطبيعية الخلابة مع مزارع خشب التنوب الوافرة التي يحيط بها الغبار بفعل حركة الطريق السريعة، أما عندما نظرت عاليًا نحو سماء مايو الضاربة إلى الزرقة، رأيت ما جعل نبضات قلبي تتسارع.. طائرة أحادية السطح تجوب السماء جنوبًا!

كنت على يقين تام من أن تلك الطائرة كانت تبحث عني، كما أنها غير تابعة للشرطة، ظللت أشاهدها لمدة ساعة أو ساعتين من حفرة مغطاة بنبات الخلنج([3]) بينما تحلق على امتداد قمم التلال، ومن ثم تجوب المكان في دوائر ضيقة فوق الوادي الذي أتيت إليه، إلى أن بدا وكأن قائدها قد اتخذ قرارًا آخر، فارتفعت على مسافة أكبر، وحلقت عائدة نحو الجنوب، شرعت أفكر في تلك الطريق التي اخترتها ملاذًا لي، إذ لم تكن تلك التلال غطاء كافيًا إذا جال أعدائي هكذا في السماء فتعين عليّ أن أعثر على مأوى مختلف، إلى أن انتابني شعور بالارتياح عندما التقطت عيناي بلدة خضراء خلف سلسلة التلال، حيث تقبع الغابات والبيوت المصنوعة من الحجر.

خرجت من تلك الأرض البور تجاه طريق ضيق قرابة السادسة، والذي تتبعته لينتهي بي الأمر في واد منخفض، ثم تحولت باحة الوادي إلى هضبة، لأبلغ ممر عبور ما حيث يقبع منزل منعزل أمام حمرة الشمس في الشفق، كان يقودك إليه جسر يتأرجح في الطريق، بينما يميل على متراسه شاب يافع، يدخن غليونه الطويل المغطى بالوحل ويتأمل المياه بعيون مخيفة كالدب، وفي يده اليسرى يسكن كتاب صغير بإصبعه يشير إلى المكان الذي توقف عند قراءته، قفز مستديرًا ناحيتي بينما تخطو قدماي الدرجة الأولى من الجسر، ليتراءى لي وجه صبياني متأثر بأشعة الشمس، قائلًا بنبرة جدية:

«مساؤك خير، ليلة رائعة للبقاء خارجًا».

تسللت إليّ من المنزل رائحة الدخان والشواء التي تعكس طيب النكهة..

فتوجهت إليه بالسؤال:

«هل هذا المكان نزل؟».

فقال بتأدب:

«في خدمتك، أنا المالك يا سيدي، ولَكَمْ آمل أن تقضي الليلة هنا، إذا أردت الحقيقة فلم يكن لدي صحبة طوال أسبوع مضى».

وهنا كنت قد سحبت جسدي بأكمله على متراس الجسر، وملأت غليوني بالتبغ، وبدأت أتفحص ذلك الفتى، قائلًا:

«لا تزال يافعًا جدًا كي تصبح مالك نزل».

فجاء رده:

«توفي والدي قبيل عام مضى تاركًا لي هذا العمل، فأنا أعيش هنا مع جدتي، إنها وظيفة تبعث على الاسترخاء نسبة لشاب مثلي، ولكن إن خيرت فلن أختار هذه سأختار أخرى».

تورد وجهه خجلًا بينما أسأله: «والتي هي...؟».

أجابني: «أريد أن أكتب كتبًا».

فصحت قائلًا:

«وأين ستجد فرصة أفضل من هذه؟ لطالما اعتقدت أن صاحب النزل يمكنه أن يصبح أفضل راوٍ للقصص في العالم».

فأجابني بنبرة تعطش:

«ليس الآن،، ربما كان ذلك ممكنًا في الأيام الخوالي عندما كان يتوافد الناس، صانعو الأغاني الراقصة، مارة الطرق السريعة وحافلات إيصال البريد، لكن ليس الآن».

«.. لا شيء يأتي إلى هنا سوى سيارات تشغلها سيدات بدينات، يتوقفن لتناول طعام الغداء، كما يمر صياد سمك أو اثنين في الربيع، والرماة الذين يقيمون في أغسطس، لا يمكنك كتابة الكثير من هذا، فأنا أرغب في رؤية الحياة، أجوب العالم، أكتب أشياء مثل «كيبلينج» و«كونراد»([4])، ولكن أقصى ما استطعت فعله حتى الآن هو الخروج ببعض أبيات الشعر المطبوعة في دفتر اليوميات بكل غرفة». وهنا أشحت بنظري تجاه نزل يتألق بلون الذهب في غروب الشمس قبالة التلال ذات اللون البني..

«لقد عاصرت القليل خلال احتكاكي بالعالم، ولن أزدري حياتي إن وصفتها بالرهبنة داخل دير، أفلا تعتقد أن مغامرة كتلك تتاح فقط بين السادة النبلاء؟ أو ربما أنك على قناعة بالفكرة في لحظتنا هذه فحسب.. كما يقول «كيبلينج».

قالها الفتى وعيناه تتلألأن في إشراقة، وبدأ يقتبس بضعة أبيات شعرية: «الرومانسية التي تحضر إليك..

فصحت فيه قائلًا: إليك بقصة حقيقية إذًا، إذ يمكنك خلق رواية منها بعد شهر من الآن» وشرعت أروي عليه الآتي:

«وبينما كنت جالسًا على الجسر أثناء غسق خافت في شهر مايو..».

إذ غزلت له خيوط قصة جميلة، أساسها واقعي صحيح، على الرغم من استبدالي للتفاصيل الثانوية، اختلقت كوني ثريًا أعمل في مناجم استخراج المعادن من «كيمبرلي» في جنوب إفريقيا، والذي كانت تطارده المشاكل مع تجارة الماس غير المشروعة، ومن ثم فقد كان يسعى خلفي تشكيل عصابي

يلاحقونني عبر المحيط، وقد قاموا بقتل أفضل أصدقائي بينما هم يتتبعون المسار الذي سلكته، تلوت القصة عليه جيدًا، على الرغم من أنني شاركت أكثر مما يجب عليّ قوله، صوّرت له رحلة عبر صحراء «كالاهاري» إلى ألمانيا، أيام المرح، والرقص، وتلك الليالي الرائعة، وكيفما تمت مداهمتي أثناء عودتي إلى الوطن، ومن ثم أدليت بأمر مما يخص جريمة «بورتلاند».

وأخبرته بعزم:

«أنت تبحث عن مغامرة ما، حسنًا إذًا، فقد تحصلت عليها لتوك، فهؤلاء المتآمرون قادمون إليّ والشرطة تسعى خلفي بدورها، إنه سباق أنا مخول للفوز به».

فهمس قائلًا: «بالاستعانة بربك».

واستكمل بينما يتلقط أنفاسه بتعنف:

«إنها ككتابات «رايدر هاجارد» و«كونان دويل» تمامًا».

فسألته بامتنان: «إذا فأنت تصدقني».

فأجاب: «بالطبع أصدق، أنا أصدق في كل شيء خارج عن المعتاد، فالشيء الوحيد الذي عليك أن ترتاب فيه هو الشيء الذي يبدو طبيعيًّا».

كان يافعًا جدًّا، لكنه كان من نوع الرجل الذي يمكنك ائتمانه، سألته:

«أعتقد أنهم يتتبعون مساري في الوقت الحالي، ولكن عليّ أن أرتاح قليلًا لبضعة أيام، فهل ستتمكن من استضافتي؟».

وهنا فقد أمسك مرفقي بحماسة وسار بي في اتجاه المنزل.. قائلًا:

«يمكنك الاستلقاء محتميًا هنا كما لو أنك مكسو بالطحالب، وسأحرص على عدم إفشاء السر، ولكن هل يمكنك إخباري بالمزيد عن مغامراتك؟».

التقطت أذناي ضجة ناتجة عن صوت محرك فور أن دلفت رواق النزل، استنتجت كونه ذاك المُحلق في حمرة الغسق، قائد الطائرة الأحادية.

أدخلني الفتى غرفة في الجزء الخلفي من المنزل، ذات إطلالة رائعة على الهضبة والتي كانت مكتظة بطبعات رخيصة لأدبائه المفضلين، لم يتسنى لي رؤية الجدة أبدًا، وحينها خمنت أنها كانت طريحة الفراش. كانت تحضر لي وجباتي امرأة عجوز تدعى مارجيت، بينما كان مالك النزل حولي طوال الوقت، أردت الاختلاء بنفسي قليلًا، لذا اختلقت وظيفة من شأنها أن تشغله، إذ كان لديه دراجة نارية أرسلته عليها في صباح اليوم التالي لابتياع الصحيفة اليومية، والتي عادة ما يجلبها أحدهم مع البريد في وقت متأخر نحو الظهيرة، أخبرته أن يبقي عينه مستيقظة، وأن يدون ملاحظة حول أي شخص غريب قد رآه، وخاصة الطائرات.

ومن ثم جلست أنا كي أتصفح كتيب «سكودر» بجدية، حتى عاد في منتصف النهار حاملًا معه جريدة «سكوتمان» المحلية في اسكتلندا والتي لم يكن بها أي جديد سوى بعض الأدلة الخاصة ببادوك وبائع الحليب، يصاحبهم إعادة لتقرير الأمس الذي أقر بأن القاتل قد فر ناحية الشمال، لكن كانت هناك مقالة طويلة قد أعيدت طباعتها من جريدة «التايمز» عن «كاروليديس» والوضع القائم في البلقان، على الرغم من عدم ذكر أي مما يخص وجود زيارة إلى إنجلترا.

استطعت التخلص من مالك النزل فيما بعد الظهيرة، نظرًا لكوني منهمكًا في رحلة بحثي عن الشفرة المفقودة بكتيب «سكودر»، والتي كما أخبرتكم كانت تمثل كودًا رقميًّا، وبخبرة واسعة من الدراسات والتجارب اكتشفت ما تشير إليه الأصفار ونقاط التوقف، كانت العقبة الوحيدة هي الكلمة التي تعد مفتاحًا لتلك الشفرة، وعندما فكرت في ملايين الكلمات الشاذة التي قد أتى على ذكرها انتابني شعور باليأس، حتى قرابة الساعة الثالثة جاءني إلهام مفاجئ، إذ قفز اسم «جوليا سيشيني» إلى ذاكرتي، فقد قال «سكودر» من قبل إنها مفتاح عمل «كاروليديس»، وخطر علي أن أجربه لحل الكود، وقد نجح الأمر معي قليلًا.

مثلت حروف اسم «جوليا سيشيني» أرقام، فأول حرف من اسمها «j» وترتيبه العاشر في الحروف الأبجدية الإنجليزية، فقد عوض عنه بالرمز «X» في الشفرة الرقمية وهو ما يساوي ١٠ وفقًا للأرقام اللاتينية، قمت بتدوين ذلك في رسم بياني على ورقة وتموضعت جالسًا لأقرأ باقي صفحات «سكودر»، كنت أواصل القراءة بوجه شاحب وأصابع تقرع تباعًا على الطاولة بعد مرور نصف ساعة، ألقيت نظرة سريعة من النافذة حتى وقعت عيناي على سيارة رحلات كبيرة تقطع الوادي قادمة في اتجاه النزل.

توقفت أمام الباب، وكان هناك صوت لأناس يترجلون منها، بدوا لي رجلين في ملابس خريفية وقبعات الصوف المسطحة، وبعد مرور عشر دقائق تسلل إليّ مالك النزل، وعيناه تشعان في هياج هامسًا: «هناك رجلان يبحثان عنك في الأسفل.. إنهما الآن في غرفة الطعام يحتسيان الويسكي والصودا، سألا عنك وقالا إنهما يتطلعان إلى مقابلتك هنا! استطاعا وصفك على نحو غريب، من رأسك حتى أخمص قدميك، بحذائك ذي الرقبة الطويلة والقميص الذي ترتديه. أخبرتهم أنك كنت هنا الليلة الماضية وذهبت على دراجة نارية صباح اليوم، حتى توعدك أحدهم بقوة».

جعلته يصف لي كيف يبدو كل منهما، فأخبرني أن أحدهما نحيف بعينين سوداويين وحاجبين كثيفين، أما الآخر فهو مبتسم دائمًا وكثير التلعثم في حديثه، لم يكن أي منهما أجنبيًّا، وهو الأمر الذي جعلني أشعر بإيجابية تجاهه.

أخذت بعض الأوراق، أدون بعض الكلمات بالألمانية كي تبدو كجزء من رسالة، قائلًا: البلاك ستون، جاء سكودر على ذكره مسبقًا، لكنه لم يستطع التصرف لمدة أسبوعين، كما أشك إن كان باستطاعتي فعل أي شيء الآن، خاصة أن كاروليديس غير متأكد من خططه، ولكن إذا تمكن سيد. تي من إبداء نصيحة إليّ فسوف أبذل ما بوسعي..».

اختلقت الأمر على نحو مرتب، حتى بدت كصفحة مفقودة من رسالة خاصة.

وأمرته قائلًا:

«خذ هذه إلى الأسفل وقل لهما إنك قد عثرت عليها في غرفة نومي، طالبًا منهما إعادتها إليّ إذا نجحوا في اللحاق بي».

وبعد ثلاث دقائق تسلل لمسامعي صوت السيارة تتجهز للحركة، اختلست النظر من خلف الستار، إذ تراءى لي رجلان أحدهما نحيف بالفعل والآخر أملس، كان ذلك أكثر ما أمكنني استطلاعه، حتى ظهر مالك النزل في إثارة بالغة، وقال في ابتهاج:

«لقد أفزعتهم تلك الورقة».

فقد ذهب الرجل ذو البشرة الداكنة هذا وكأن لعنة قد أصابته، فيما اعتلى وجه صاحبه الآخر نظرة بغيضة، ومن ثم أعطوني نصف إسترليني لقاء مشروباتهم، ولم ينتظروا لأجل الباقي، فأخبرته: «سأخبرك الآن ما أريدك أن تفعله، اقفز على دراجتك متجهًا إلى «نيوتن ستيوارت» إلى رئيس الشرطة هناك، صف له هذين الرجلين، وأخبره أنك تشكك في كونهم على علاقة بجريمة القتل التي حدثت في لندن، يمكنك اختلاق الأسباب فحسب، فهؤلاء الاثنين سيعودان أدراجهما، لكن ليس الليلة، حيث سيتتبعان أثري لأربعين ميلًا إضافية على هذا الطريق، لذا فأول ما عليك فعله صباح الغد هو إخبار الشرطة أن تحضر إلى هنا باكرًا».

انطلق كطفل مطيع، بينما واصلت العمل على مسودات «سكودر»، وعندما عاد تناولنا الغداء معًا، فيما تعين عليّ أن أتركه ينهكني هو الآخر كمنفعة متبادلة، إذ أعطيته بدوري الكثير مما أعلم عن مطاردة واصطياد الأسود وعن حرب ماتابيلي، بينما أفكر فيما تورطت به الآن إذا ما قورن بكل ذلك! وعندما خلد للفراش، جلست أحاول الانتهاء مما كتبه «سكودر».

ظللت أدخن في مقعد ما حتى بزوغ الفجر، نظرًا لأني لم أستطع الخلود إلى النوم، وفي حوالي الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي شهدت وصول اثنين من رجال الشرطة رفقة آخر برتبة رقيب، تركوا سيارتهم في بناء صغير فارغ تحت تعليمات مالك النزل، ومن ثم دلفوا إلى المنزل.

وبعد عشرين دقيقة رأيت من خلال نافذتي سيارة أخرى تسير بمحاذاة الهضبة من الاتجاه المعاكس، لم تأخذ طريقها تجاه النزل، ولكنها توقفت على بعد مائتي ياردة مستظلة بكومة من الخشب.

وفي دقيقة أو اثنتين سمعت ضجيج أقدام ركابها على الحصى خارجًا، كنت أنوي الاختباء في غرفة نومي، أراقب ما يحدث، فقد كان لدي حدس بأنه إن تمكنت من إحضار رجال الشرطة وهؤلاء المتعقبين معًا، لسوف تنتول الأمور لما هو في صالحي. ولكن الآن لدي فكرة أفضل، إذ قمت بتدوين رسالة شكر وعرفان لمضيفي، ثم فتحت النافذة، وقفزت بروية داخل شجيرة نبات الكشمش أسفلها، ومن ثم فقد عبرت الحاجز متخفيًا، وواصلت الزحف إلى جانب غدير المياه الجارية في تجاه الطريق العام وصولًا إلى القعة التي أوقفوا فيها السيارة، تحت شعاع شمس الصباح، ولكن الغبار عليها كان يعكس قدومها من رحلة طويلة، قفزت إلى مقعد السائق، أدرت المحرك، انطلقت رويدًا رويدًا إلى طريق الهضبة، والذي بدأ في التعرج مما حال دون استطاعتي رؤية النزل، ولكن الرياح قد حملت إليّ أصواتًا غاضبة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل الرابع

مغامرة المرشح الراديكالي «المتطرف»

ربما أنكم تتصورونني الآن أقود سيارة أوستن» بالطراز الأربعيني لها والتي كانت جديرة بالسير عبر هذه الطرق الوعرة في صباحٍ مايو المشرق ذلك اليوم، أواصل إلقاء لمحة خاطفة على الطريق من خلفي، ومن ثم أعاود النظر قلقًا إلى المنعطف القادم، ثم أقود بأعين ملتبسة، على وعي كافٍ كي أبقيها على الطريق السريع الذي أسير عليه.

كان عقلي مستغرقًا في التفكير فيما وجدته في كتيب «سكودر»، والذي ربما قد أخبرنيٍ العديد من الأكاذيب، فكل رواياته عن البلقان، اليهود- الأناركيين ومؤتمر وزارة الخارجية كان حديثًا دون دليل ملموس حتى اللحظة، وكذلك رواية «كاروليديس»، فحتى الآن لم يظهر أمامي أي شيء واضح تمام الوضوح، راهنت على إيمانيٍ بقصته، إلى أن شعرت بالخذلان في نهاية المطاف؛ فها هو كتابه يخبرني بروايات مخالفة، وبدلًا من أن أرتاب في الأمر مجددًا صدقته، لماذا، أنا لا أدري حقًّا، فقد بدا حقيقيًّا، ولكن رواية «سكودر» أيضًا كانت تبدو حقيقية ذات وقع غريب في الروح.

كان يوم الخامس عشر من يونيو على وشك أن يغدو مصيريًّا، مصيريًّا أكثر من محاولة التخلص من مجرم عالمي، كان الأمر هائلًا إذ أنني لم أستطع لوم «سكودر» كل اللوم لإبقائي خارج اللعبة، لرغبته في اللعب وحيدًا، إذ كانت الحقيقة قاتلة لدرجة أن حاملها أراد الاحتفاظ بها لنفسه فقط، فكل ما أراد إخفاؤه عني عمدًا لم يكن سوى مخاطر من شأنها أن تجلي الأذى على رأس صاحبها.

كانت العقبة برمتها تكمن في الفراغات التي لا يمكننا شغرها سوى بما يقبع في ذاكرة «سكودر» نفسه، تتفهمون ذلك بالطبع، فقد كانت لديه حيلة غريبة بمنحهم تلك القيمة العددية، ومن ثم خلق توازن مجهول بالنسبة لي، وفقًا لكل مرحلة من القصة التي رواها، فكانت الأسماء الأربعة التي سجلها خاصة بالسلطات، وكان هناك رجل يدعى «دوكروس»، وزميل آخر يدعى «أميرسفورت»، إضافة إلى عبارة غريبة جاء على ذكرها عشرات المرات داخل الأقواس..

عبارة «(الدرجات التسع وثلاثون)»، مستخدمة على النحو التالي: «الدرجات التسع وثلاثون، لقد أحصيتهم، والمد العالي في تمام الساعة «١٠:١٧» مساء».. لم أستطع الخروج بأي نتيجة من ذلك، جل ما توصلت إليه أنه لا مجال لأي شيء من شأنه أن يمنع الحرب، كان الأمر محسومًا، كقدوم عيد الميلاد المجيد، مخططًا له بعناية منذ فبراير ١٩١٢، على حد زعم «سكودر».

كان «كاروليديس» هو الحدث الرئيسي، فقد تم حصاره جيدًا، وسيتم التحقق من ذلك في الرابع عشر من يونيو، وبعدما مر أسبوعان وأربعة أيام من صباح ذلك اليوم، وبعدما واصلت تفحص مدونات «سكودر» تلك بأكملها بت متيقنًا أنه لا يوجد شيء على وجه الأرض سيوقف ذلك، إذ كان حديثه عن حراس المدعو «كاروليديس» صحيحًا بما يكفي، ولكن الأمر كان يتمحور حول إحداث مفاجأة كبيرة لبريطانيا.

إذ سيشعل مصرعه الخلاف في منطقة البلقان، ومن ثم ستقوم فيينا بتوجيه إنذار نهائي، كما لن توافق روسيا على ذلك وستعمل على تصعيد الأمور، أما عن برلين فستلعب دور محبة السلام بينما تسكب الزيت على الماء إلى أن تختلق سببًا وجيهًا للنزاع، فتعول عليه، وتحلق نحوه خلال خمس ساعات، لطالما كان هذا هو الأسلوب المتبع، وهي فكرة جيدة جدًّا بالطبع، الكلام المعسول والخطابات العادلة، يتبعهما ضربة في الظلام، فبينما نحن نتحدث عن رغبات ونوايا ألمانيا الحسنة، يطوق ساحلنا بالألغام في سرية تامة، وتقبع الغواصات في انتظار أية بارجة حربية، لكن كل هذا يعتمد على الحدث المقرر إقامته في الخامس عشر من يونيو، لم أكن لأفهم كل ذلك أبدًا لو لم يتسنى لي لقاء أحد ضباط الأركان الفرنسيين أثناء عودتي من غرب إفريقيا، والذي أخبرني العديد من الأشياء، كان أحدها عن تحالف العمل الحقيقي بين فرنسا وبريطانيا على الرغم من كل الهراء الذي يتم التفوه به في البرلمان، ولقاء لواءات أركان الجيش هنا وهناك بين الحين والآخر، لوضع اتفاقيات حول خطط للعمل المشترك في حالة الحرب.

على أي حال، فقد أعد ذلك أمرًا مهمًّا على نحو استثنائي، ولكن في اليوم الخامس عشر من شهر يونيو من المقرر أن يكون هناك أناس آخرون في لندن، أناس لم أتمكن من تخمين كينونتهم إذ كان «سكودر» يدعوهم جميعًا عن قناعة «البلاك ستون»، لن يكونوا حلفاء لنا بالطبع، بل خصوم على نحو جلي.

كانت تلك هي القصة التي شغلت بالي بينما أقبع في غرفة بالنزل الريفي، الذي يطل على حديقة مزروعة بالملفوف الأخضر »نبات الكرنب»، وهي نفسها القصة التي علقت بها، بينما أتأرجح داخل سيارة الرحلات تلك من واد إلى آخر.

قادتني دوافعي في البداية إلى أن أكتب رسالة إلى رئيس الوزراء، لكني عدلت عن ذلك كونه سيصبح عديم الفائدة، فمن سيصدق روايتي؟ علي أن أقوم بإرسال إشارة ما، بعض البراهين التي من شأنها أن تثبت الأمر، ولكن وحده من في السماء يعرف ما يمكن لذلك البرهان أن يكون، رغم كل شيء كان علي المواصلة بنفسي، كان علي الاستعداد للقيام بدوري إذا ما فاقت الأمور حدها، ولن يغدو ذلك عملًا سهلًا مع سعي شرطة بريطانيا هكذا خلفي، إلى جانب «البلاك ستون» هؤلاء الذين يتعقبون أثري في صمت.

لم يكن لدي وجهة واضحة في الرحلة، أدرت دفتي شرقًا، لأنني تذكرت من الخريطة أنني لو اتجهت شمالًا لسوف أصل لمناطق استخراج الفحم والمدن الصناعية، كنت أفلت من الأراضي الوعرة واقطع طريقًا عريضًا على جانب النهر في ذلك الحين، واصلت القيادة لأميال على امتداد جدار حديقة ما، إذ تراءت لي قلعة بارزة أيضًا بعد فاصل من الأشجار.

كما سرت قليلًا خلال طريق به قرى قديمة ذات أسقف من القش على امتداد الأراضي المنخفضة الهادئة، كذلك الحدائق المليئة بنبات الزعرور وأشجار الأبنوس الأصفر، كانت الأرض تبعث شعورًا بالسلام إلى درجة تجعلني بالكاد أصدق أن هناك من يطاردني في مكان ما، وأن كل ذلك قد حدث في غضون شهر واحد، ولو لا حظي الوافر لكانت تلك الوجوه الريفية جميعها محدقة نحوي، بينما يستلقي أولئك المتآمرون في انتظاري بالحقول البريطانية..

إلى أن اقتربت الظهيرة وقطعت الطريق لمسافة طويلة وكنت أنتوي خلالها التوقف لتناول الطعام، وبعدما قدت منتصفه نزولًا بالفعل كنت قد بلغت مكتبًا للبريد، حتى تراءى لي مديرة المكتب ومعها رجل شرطة منكبان على العمل قبالة برقية ما، ليتقدم الشرطي رافعًا يده مشيرًا إليّ بأن أتوقف.

كدت أن أكون مخبولًا بما يكفي لإطاعته، ثم فكرت بأن تلك البرقية قد تكون عني، بفعل هؤلاء المتآمرين في النزل، ربما توصلوا إلى تفاهم، وتوحدوا على الرغبة في رؤيتي، كما أنه لأمر يسير أن يرسلوا وصفًا لي وللسيارة إلى ثلاثين قرية من شأني أن أعبر بها، أطلقت المكابح في الوقت المناسب، إذ قام الشرطي بإحداث خدش في غطاء المحرك باصأبعه.

تراى لي أن الطرق الرئيسية لن تكون بالمكان المناسب للسير فيه، فانعطفت نحو طريق جانبي، لم يكن ذلك عملًا سهلًا دون خريطة، جازفت بالقيادة نحو مزرعة ما أو طريق قد ينتهي بي داخل بركة للبط أو باحة تحوي إسطبل للخيول، ولكني لم أستطع التواني لهذه الأسباب، بدأت أدرك لكم كنت أحمق لأسرق سيارة كهذه.

ولكن إن تركتها وذهبت سيرًا على الأقدام، فسوف أكتشف في غضون ساعة أو ساعتين ولن يتسنى لي اختيار نقطة بداية في تلك المطاردة حتى، كان يتعين علي أن أحيد تجاه الطرق المهجورة المنعزلة، والتي سرعان ما وجدتها عندما صعدت أحد روافد النهر، ودلفت ناحية واد يحوي تلالًا شديدة الانحدار، يقودك لطريق ذات معبر ضيق داخل الجبال، لم أصطدم بكائن كان هناك، لكن ذلك الطريق كان يأخذني بعيدًا إلى أقصى الشمال، لذا انحرفت ناحية الشرق على امتداد مسار سيئ إلى أن وصلت لشبكة سكك حديدية في نهاية المطاف، بينما يظهر واد آخر في الأفق ذات مسلك يكاد يصلح للسير، إذ خطر في بالي أنه إذا قمت بعبوره لربما أجد نزلًا صغيرًا حتى انقضاء الليلة، فقد كنت أتضور جوعًا، لم أتناول شيئًا منذ الإفطار سوى بضع كعكات اشتريتها من عربة الخباز..

سمعت ضجيجًا في السماء في ذلك الحين، لأجد تلك الطائرة الشيطانية مجددًا، تحلق على ارتفاع منخفض، على بعد حوالي ١٢ ميلًا إلى الجنوب متجهة نحوي بسرعة، تذكرت أنني في مأوى خال تمامًا تحت رحمة تلك الطائرة، فكانت فرصتي الوحيدة هي الوصول إلى ملجأ محاط بالأشجار داخل الوادي، وبالفعل انطلقت بسرعة البرق أسفل التلة، ألتفت برأسي هنا وهناك، كي يتسنى لي رؤية تلك الآلة المحلقة اللعينة.

سرعان ما أصبحت على طريق محاط بالسياج، منحنيًا تجاه قطع من واد صغير جانب مجرى النهر، بدأت أتعثر في بعض الأخشاب السميكة التي أعاقت سرعتي قليلًا بدورها، إلى أن تسلل إلى أذناي ضجيج سيارة أخرى من ناحية اليسار فجأة، ولم يخفف شعوري بالرهبة التي انتابتني سوى أنني كنت على وشك الدخول إلى اثنين من المخارج التي من شأنها أن تسلكك طريقًا خاصًا من الوادي إلى الطريق السريع، حتى أنني كدت أشعر بارتياح لكنه لم يدم طويلًا، إذ توقفت بالضغط على مكابحي بقوة دفع لاإرادية كبيرة جدًّا، لتظهر قبالتي سيارة تنزلق فتعترض طريقي تمامًا.. حيث كان ليحدث تحطم عنيف في غضون ثانية، فعلت ما كان بوسعي لمنع ذلك، ومن ثم اتجهت سريعًا داخل سياج الشجيرات على يميني، واثقًا تمام الثقة في العثور على شيء ما في الجانب الآخر، ولكن كنت مخطئًا، إذ انزلقت سيارتي من خلال السياج كالزبدة، كي تصطدم صدامًا مروعًا بما أمامي، فقفزت

على المقعد استعدادًا للفرار خارجها، ليصيبني أحد فروع الأشجار في الصدر، يرفعني ويتمالك مني، ومن ثم يطرحني أرضًا لأسقط بقوة خمسين قدمًا على مسار النهر مجددًا.. إلى أن أفلتتني ذلك الشجر الشائك ببطء، فاستلقيت على طوق الشجيرات الأخرى، ومنه إلى كوخ آخر ممتلئ بالنباتات، وبينما أنا مندفع على قدمي فإذا بيد تمسك بذراعي، وبصوت متعاطف ومتهدج للغاية يسألني صاحبه إذا ما كنت مصابًا.

وإذا بي أمعن النظر في رجل فارع الطول ذي عوينات ومعطف من الجلد، يواصل الأسف على ما حل بي مرارًا، أما بالنسبة لي فمجرد تسلل الرياح لرئتي جعلني سعيدًا تمامًا، ولم تكن تلك سوى الطريقة المثلى للتخلص من السيارة، وهنا أجبته:

«اللوم عليّ يا سيدي، من حسن الحظ أنني لم أضف الموت لسلسلة حماقاتي، إذ كانت تلك نهاية جولتي السياحية بالسيارة في اسكتلندا، لكنها كانت من المرجح أن تغدو نهاية حياتي بأكملها».

فنبش عن ساعته وتفحصها قائلًا:

«أنت الشخص الأكثر حظًّا من بني جنسك.. أستطيع البقاء معك لربع ساعة، كما أن منزلي على بعد دقيقتين فقط من هنا، يمكنك التأكد من خلودك للفراش مرتديًا الثياب، حاصلًا على ما يكفيك من الطعام ومنعم بالدفء أيضًا، أين أمتعتك بالمناسبة؟ هل احترقت مع السيارة؟».

فقلت له:

«إنها في جيبي» ولوحت له بفرشاة أسنان مستكملًا:

«أنا مرتحل وأسافر كثيرًا في وضح النهار».

فصاح في:

«مرتحل! يا إلهي، إنك تمامًا الرجل الذي كنت أصلي لقدومه، هل تعمل كتاجر حر بمحض تلك الصدفة المباركة؟».

فأجبته:

«نعم».

وبدون إبداء أي تفسير عما كان يقصد بحديثه هذا، فقد ربت على كتفي وهرع بي إلى داخل سيارته. وفي غضون ثلاث دقائق، توقفنا أمام باحة معدة للصيد ذات منظر باعث على الراحة بين أشجار الصنوبر، أرشدني إلى داخلها ومن ثم إلى غرفة نوم كي يطرح نصف ملابسه أمامي، نظرًا لكون ما أرتديه قد أصبح قريبًا إلى قطعة قماش بالية، وقع اختياري على زي أزرق فضفاض، والذي بدا بعيدًا تمام البعد عما كنت أكتسي به مسبقًا، علاوة على إعارتي وشاحًا من الكتان، ثم جذبني نحو غرفة الطعام حيثما بقيت آثاره على الطاولة، مخبرًا إياي بأنه أمامي خمس دقائق فقط لتناوله..

إذ قال:

«يمكنك اصطحاب وجبة خفيفة في جيبك، ولسوف نتناول العشاء فور عودتنا، لكن يجب أن أكون حاضرًا في المجلس تمام الساعة الثامنة، وإلا سينهرني وكيل أعمالي».

احتسيت فنجانًا من القهوة وتناولت بعضًا من اللحم البارد، بينما كان الآخر يرتعد قبالتي بعيدًا أمام المدفأة.

«لقد عثرت علي في خضم الفوضى، يا سيد، فلان، لم تخبرني باسمك، هل هو «تويسدون»؟ هل لك أية صلة قرابة من «تومي تويسدون» من الستينيات؟ لا؟ حسنًا، كما ترى فأنا مرشح ليبرالي لهذه المنطقة، وكان لدي اجتماع منعقد الليلة في «براتلبورن» بلدتي الرئيسية ومعقل حزب المحافظين في بريطانيا، كنت أنتظر زميلًا لي يدعى «كرمبليتون» والذي كان من المفترض أن يأتي للتحدث نيابة عني اليوم، إذ كان كل شيء متفقًا عليه على هذا النحو وموضوع النقاش مجهزًا كذلك..

إلى أن وصلني تلغراف بعد ظهر اليوم من ذلك الخسيس يفيد بأنه قد أصيب بإنفلونزا في بلاكبول، وها أنا قد تركت لأفعل كل شيء بنفسي، كنت معنيًّا للحديث قرابة العشر دقائق، أما الآن فعلي أن أواصل لأربعين دقيقة، وعلى الرغم من أنني ظللت أعتصر عقلي هكذا طوال ثلاث ساعات للتفكير في شيء ما، إلا أنني لم أستطع مداومة الأمر، لذا فعليك أن تكون رجلًا صالحًا الآن وتتقدم لمساعدتي، أنت تاجر حر ويمكن أن تخبر هؤلاء الناس عن أساليب الحماية في الجاليات المنعزلة، فأرى لديكم دائمًا هبة القدرة على الثرثرة التي تمنيت متضرعًا أن أمتلكها يومًا، افعل ذلك وسأكون مديونًا إليك إلى الأبد».

كان لدي بضع معلومات حول التجارة الحرة بطريقة أو بأخرى، لكنني لم أر فرصة أخرى يمكنني بها الحصول على ما أريد.

كان ذلك الرجل النبيل مستغرقًا بما يكفي في عوائقه الخاصة كي يجد وقتًا للتفكير جيدًا في مدى غرابة أن تسأل مارًّا قد تجنب الموت بأعجوبة لتوه وفقد سيارة ثمينة كي يلقي خطابًا في اجتماع لأجلك لحظة معرفتك به، لكن رغباتي الملحة لم تسمح لي أن أفكر مليًّا في ذلك، أو أن أنتقي نوع الدعم الذي أحتاجه، لذا فقلت له:

«حسنًا».. أنا لست متحدثًا لبقًا، لكنني سأخبرهم القليل عن أستراليا».

وبمجرد سماعه كلماتي تلك بدا كأنما الحمل قد زال من على كتفيه، وظل يواصل شكري بشغف كبير..

ومن ثم أعارني معطفًا كبيرًا دون أن يزعج نفسه مطلقًا بسؤالي: لم شرعت في هذه الجولة السياحية دون امتلاك معطف حتى؟ وبمجرد أن دلفنا تجاه تلك الطرق المثيرة للغبار، إلا وشرع يتلو عليّ حقائق مختصرة عن تاريخه، إذ كان يتيمًا، أحضره عمه إلى هنا والذي سقط اسمه من ذاكرتي تمامًا، لكنه كان شخصية ذا قيمة في مجلس الوزراء، ممن يمكنك قراءة خطاباتهم في الصحف، كما جاب العالم بعد مغادرة «كامبريدج»، ولذا فقد اقترح عليه دخول عالم السياسة، استنبطت حينها أنه لم يكن لديه تفضيل بين الأحزاب، إذ قال بنبرة تحمل التفاؤل:

«توجد قلة جيدة في كل منهما.. وفيض من الآفات، أنا ليبرالي فقط كون عائلتي لطالما انحدرت من الشخصيات البارزة التي تدعم هذا الفكر».

اعتقدت أنه لو فقد حماسه ذلك بالسياسة لكان يصنف كشخص لديه آراء قوية حول أشياء أخرى، تكشف له أنني أعرف القليل عن الخيل، كما أطلنا الحديث عن استعدادات الديربي، وكان يمتلك العديد من الخطط للعمل على مهاراته في الرماية، كان شابًّا مهندمًا بكل ما تحمله الكلمة من معنى، لطيفًا، لا خبرة له في الحياة.

وبينما نشرع في العبور من بلدة صغيرة، استوقفنا اثنان من رجال الشرطة بتسليط ضوء كشافاتهما علينا، إلى أن تفوه أحدهما فور اقترابه:

«معذرة سيد هاري، فقد تلقينا تعليمات بالبحث عن سيارة، وصفها يبعد تمام البعد عن سيارتك بالطبع».

فأجابهم مضيفي: «حسنًا».

بينما أنا أوجه الشكر للعناية الإلهية التي أرسلتلي الحماية بتلك الطرق في نهاية المطاف، أما بعد فلم يتفوه بأكثر من ذلك، إذ انشغل عقله بخطابه القادم، كانت شفاهه تواصل الغمغمة، عيناه تجول هنا وهناك، فيما بدأت أنا بإعداد نفسي، حاولت التفكير في أي شيء يمكنني قوله، لكن ذهني كان جافًّا جامدًا كحجر، كان ثاني ما اختبرته حينها هو انتظارنا خارج بوابة في الشارع، بينما يتم الترحيب بنا بصخب من قبل بعض السادة من حاملي الشارات، كان يشغل القاعة قرابة الخمسمائة شخص، معظمهم من السيدات، وكثير من رءوس الرجال الصلعاء، إضافة إلى ١٢ أو ضعف ذلك من الشباب. أما عن رئيس الجلسة، فهو قس مبجل ذو أنف ضارب إلى الحمرة، عبر عن أسفه لعدم حضور «كرامبليتون» الذي تفردت به الإنفلونزا، ومن ثم أعطاني تصديقًا على كوني «زعيمًا موثوقًا به في الفكر الأسترالي». كان هناك اثنان من رجال الشرطة يتمركزان عند الباب، لكم كنت آمل أن يحاطا علمًا بذلك التصديق، ومن ثم شرع السير هاري في حديثه، لم أستمع لشيء كهذا من قبل، لم يكن لديه أدنى فكرة عن كيفية البدء في خطاب ما، إذ كان لديه مكيال من الملاحظات التي قرأها علينا، وعندما أفلتها قليلاً دخل إلى دوامة تلعثم طويلة الأمد.

ظل يتذكر بين الحين والآخر عبارة ما كان قد حفظها عن ظهر قلب، بينما يحاول الاستقامة أولاً ومن ثم يلفظها مثل «هنري ايرفينج» - ممثل إنجليزي مسرحي - وفي اللحظة التي تليها كان يعاود الانحناء مرة أخرى منكبًّا على أوراقه، حتى بدا الأمر كهراء شديد لم أشهده على الإطلاق، تحدث عن التهديد الألماني، قائلاً: بأنه ليس سوى ابتداع من المحافظين لخداع الفقراء وصرفهم عما يخص حقوقهم واستعادة الإصلاح الاجتماعي، ولكن عملنا المنظم قد أدرك كل ذلك، فشرع المحافظون في الضحك بسخرية.

واستكمل مضيفًا: إن كل شيء يبدأ بتقليص أسطولنا كدليل على نوايانا الحسنة، ثم نوجه بعدها إنذارًا نهائيًّا لألمانيا نخبرها فيه كي تفعل الشيء ذاته، إما هذا أو أننا سنقضي عليها، لكن بالنسبة لحزب المحافظين فإن ألمانيا وبريطانيا زملاء عمل في السلام والإصلاح.

فكرت في الكتيب الأسود الصغير في جيبي حينها! إذ كان الكثيرون من أصدقاء «سكودر» يلقون بالاً نحو السلام والإصلاح، ولكن بطريقة ما غير معلومة فقد أحببت خطابه ذاك، إذ كانت تتراءى لك لطافة الرجل خلف كل القذارة التي يتلفظها فمه، كما نجح في إزالة الحمل قليلاً عن عقلي، قد لا أدعي كوني خطيبًا جيدًا، لكنني بالطبع أفضل من السير هاري بنسبة مائة في المائة.

لم أحقق تقدمًا كبيرًا عندما حان دوري، إذ أخبرتهم بكل بساطة كل ما كان بوسعي تذكره عن أستراليا، داعيًا بألا يكون هناك أي أسترالي في الأنحاء، تحدثت عن حزب العمال، الهجرة والخدمة العامة، أكاد أشك أني جئت بالأخير على ذكر أمر التجارة الحرة، لكنني أخبرتهم أنه لا يوجد حزب للمحافظين في أستراليا، فقط حزبا العمال والليبراليين، الأمر الذي تبعه هتاف تشجيعي.

كما أشعلت حماسهم قليلًا عندما شرعت في تلاوة الأعمال الرائعة التي قد يتم إنجازها خارج سيطرة الإمبراطورية إذا ما ساندنا الفكرة، وأتوهم أنني وفقت تمامًا من تلك الناحية، على الأحرى لم يحبني ذلك القس. ورغم ذلك، وعندما اعتزم شكرنا نيابة عن الحاضرين فقد أشار إلى خطاب السير هاري على كونه «رجل دولة»، وأشار إليّ بكوني أمثل فصاحة وزير للهجرة.

عندما عدنا في السيارة مجددًا، كان مضيفي يتصرف على نحو جامح كونه انتهى من ذاك العمل لتوه، قائلًا:

«خطاب رائع يا تويسدون.. الآن وبما أنك قادم معي إلى المنزل فأنا أعيش وحدي تمامًا، فإذا قررت البقاء ليوم أو يومين لسوف نقوم بصيد مدهش».

تناولنا عشاءً شهيًّا بالفعل كنت في أمس الحاجة إليه، ثم احتسينا مشروبًا في غرفة تدخين كبيرة مبهجة جانب فرقعة الخشب في نيران المدفأة.. اعتقدت أن الوقت قد حان بالنسبة لي لنثر بطاقاتي على الطاولة، إذ تراءى لي كونه رجلًا من النوع الذي يمكنك الوثوق به، فناديته: «سيد هاري، أنصت إليّ.. لدي أمر بالغ الأهمية أود إطلاعك عليه، فأنت رجل صالح، وعلي أن أكون صريحًا معك.. من أي مكان على وجه الأرض أمكنك الحصول على ذلك الهراء الذي تفوهت به الليلة؟!».

فبدا على وجهه الألم وسألني في حالة يرثى لها:

«هل كان سيئًا لهذة الدرجة؟ حسنًا، لقد بدا ركيكًا في مجمله، لقد استجمعت معظمه من «ذا بروجريسف» - مجلة أمريكية يسارية - وبعض المنشورات التي ظل نائب شاب يرسلها إليّ، ولكن ألا تعتقد حقًّا أن ألمانيا ستخوض حربًا معنا؟».

قلت له:

«اطرح هذا السؤال في غضون ستة أسابيع ولن يحتاج إلى إجابة.. إذا أعرتني انتباهك لنصف ساعة سأتلو عليك قصة».

أتذكر حتى الآن تلك الغرفة المشرقة مع رءوس الأيائل والمطبوعات القديمة على الجدران، والسير هاري يقف بلا حراك مستندًا إلى الحاجز الحجري للمدفأة، أما أنا فمستلقٍ على مقعد بينما أشرع في الحديث، بدا الأمر وكأن هناك اثنين مني، إذ يقف الآخر إلى جواري، منصتًا لما أقوله، بينما يطلق

أحكامه بدقة على صحة ما أقوله، كانت تلك هي المرة الأولى التي أخبر فيها أحدًا بالحقيقة كاملة، كما أراها تمامًا، الأمر الذي لم ينته بي على نحو جيد كوني قد قمت بتذكر الأحداث مجددًا في ذهني، لم أغض الطرف عن أية تفاصيل، إذ استمع إلي وأنا أخبره كل شيء عن: سكودر، بائع الحليب، المفكرة، وأعمالي في «جالواي».

انتابته الحماسة في ذلك الحين وظل يسير ذهابًا وإيابًا هكذا على بساط الموقد، فأتممت حديثي قائلًا:

«إذا كما ترى، فأنت تحوي في منزلك الرجل المطلوب في جريمة قتل بورتلاند، ومسئوليتك هي تسليمي للشرطة، ولا أعتقد أنني سأصمد لأمد بعيد، فسيكون هناك حادث، وسأطعن بسكين في ضلوعي بعد ساعة من اعتقالي على أقل تقدير. رغم كل ذلك، فإنه واجبك، كمواطن يحترم القانون، ربما في غضون شهر واحد لسوف تشعر بالأسف، ولكن ليس هناك أي داع للتفكير في ذلك».

كان ينظر إلي بعيون هادئة ومشرقة، عندما سألني:

«ماذا كنت تعمل في روديسيا يا سيد هاناي؟».

فأجبته:

«مهندس تعدين».

واستكملت:

«إذ قضيت وقتًا جيدًا أنظف الركام وأستخرج ما ينفعني، ليست بمهنة تساعد على تهدئة الأعصاب أليس كذلك؟» آه، بالمناسبة، فأنا أملك أعصابًا جيدة بما فيه الكفاية».

وقمت حينها بإنزال سكين صيد كان معلقًا على الحائط، ونفذت خدعة قديمة كان يفعلها قوم الماشونا - قاطني زيمبابوي في القرن الـ ١٩ - إذ يقومون بقذفها بعيدًا، ومن ثم التقاطها بالشفاه، خدعة تتطلب قلبًا ثابتًا تمامًا.

تفحصني بابتسامة قائلًا:

«لا أحتاج دليلًا على ذلك، قد أبدو لك أحمق على أي منبر، لكني أستطع تصنيف رجل ما، أنت لست قاتلًا ولست مخبولًا أيضًا، وأصدق أن ما تقوله لي حقيقة، لذا فسوف أدعمك، أخبرني الآن ما الذي يمكنني فعله؟».

فجاء ردي سريعًا: «أولاً، أريدك أن تكتب رسالة لعمك، إذ يتوجب عليّ أن أتواصل مع المعنيين بالسلطة قبيل الخامس عشر من يونيو».

فمسح على شاربه وقال: «هذا لن يساعدك».

.. فهو شأن وزارة الخارجية، ولا علاقة لعمي بذلك، بالإضافة أنه لن يمكنك إقناعه أبدً. لا، سأقصد ما هو أفضل منه، سأكتب إلى الأمين العام في وزارة الخارجية، فهو أب روحي بالنسبة إليّ - عراب - وواحد من أفضل من يمكنك اللجوء إليهم، أخبرني ماذا تريد؟».

وكان قد تموضع جالسًا على منضدة وشرع يكتب ما أمليه عليه، واتفقنا على أنه إذا ما جاءه رجل يدعى تويسدون (وهي الكنية التي أعتقد أنه من الأفضل لي التمسك بها) قبل الخامس عشر من يونيو فعليه أن يعامله بكرم ولطف.

مضيفًا أن تويسدون هذا سوف يثبت حسن نيته مطعمين ذلك بكلمة «البلاك ستون».

إلى أن انتهى سيد هاري بقوله:

«جيد، تلك هي الطريقة الصحيحة، بالمناسبة، ستتمكن من إيجاد أبي الروحي هذا والذي يدعى «السير والتر بولفانت» في منزله الريفي إذ يقضي إجازته هناك، إنه قريب من «أرتنسفيل» في مدينة «كينر»، هكذا إذًا فقد انتهينا، ما الخطوة التالية؟».

فقلت له:

«إنك تمتلك نفس طول قامتي، أعرني أقدم بذلة تمتلكها، أي شيء يمكنه إتمام الأمر طالما أن اللون هو عكس لون الملابس التي أفسدت بعد ظهر اليوم.

ثم أحضر لي خريطة للحي واشرح لي الطريق من حولنا، وأخيرًا إذا جاءت الشرطة للبحث عني، أرشدهم فقط للسيارة في الوادي، وإذا جاءتك المجموعة الأخرى أخبرهم بأنني لحقت بالقطار السريع جنوبًا قبيل اجتماعك».

أعط وعدًا بأنه سيفعل كل هذه الأشياء، قمت بعدها بتسوية شاربي، وارتديت بذلة قديمة، كما أعطتني الخريطة معلومات كافية عن مكان وجودي، وعن أمرين آخرين أردت معرفتهما إذا ما كانت تضم خط سكك حديدية رئيسي متجهًا إلى الجنوب أم لا، وعن الأحياء المنعزلة قريبة المنال منا.

وفي تمام الساعة الثانية، أيقظني هاري من قيلولتي على المقعد القابع في حجرته للتدخين، قادني خلسة في أثناء ليل مظلم مرصعة سماؤه بالنجوم، حتى تراءت لنا دراجة قديمة في باحة خردواته وقام بتسليمي إياها بينما يرشدني قائلًا:

«أولًا عليك بالانعطاف جهة اليمين متبعًا أشجار التنوب تلك، وبحلول الفجر ستصل تمامًا إلى وسط التلال».

فاستكملت:

«ثم يتعين عليّ أن ألقي بها في مستنقع وأواصل سيرًا على الأقدام».

فأجابني:

«يمكنك أن تضع في الاعتبار أسبوعًا ستقضيه بين الرعاة، وستحظى بأمان كما كنت في غينيا».

قدت الدراجة بصعوبة على طرق منحدرة مليئة بحصى التلال، إلى أن اصفرت السماء معلنة عن قدوم الصباح، وبمجرد رحيل الضباب الذي تبعه سطوع الشمس، وجدت نفسي في عالم مورق شاسع ووديان ممدودة على كل جانب منه، بينما يتراءى لي أفق أزرق على مسافة مني.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس

مغامرة مرمم الطرق ذو العوينات

تموضعت جالسًا على قمة بارزة في الطريق أفكر مليًّا في موقفي، خلفي طريق بمثابة واد علوي لبعض الأنهار التي تكاد تلحظها عيناي، وأمامي أرض مسطحة مدججة بالآبار والمستنقعات، كما تبدو وعرة نتاجًا لكتل العشب التي تستقر عليها، فيما عدا ذلك فباقي الطريق ينحدر لأسفل من واد آخر إلى أرض منبسطة تذوب عتمتها الباعثة على الكآبة في مساحتها الشاسعة تلك.

على يساري ويميني كانت التلال الخضراء المتلازمة تشبه الفطائر في نعومتها، أما جنوبًا فتتراءى لي جبال شاهقة الارتفاع، والتي تذكرت رؤيتها في الخريطة كمجموعة كبيرة قمت باختيارها ملاذًا لي بالفعل، إذ كنت أقبع في بلدة مليئة بالمرتفعات، ويمكنني أن أرى كل شيء ممتدًّا لأميال أمامي، بينما يظهر كوخ في الأسفل ويصدر منه دخان كإشارة وحيدة على وجود حياة هنا، ومن ناحية أخرى صوت الزقزاق وهدير التيارات الجارية أيضًا.

كانت الساعة تقارب السابعة، وأثناء انتظاري هذا التقطت أذناي نذير الشؤم الذي يحلق في السماء مجددًا، لأدرك أن الأرض المميزة تلك ما هي إلا شرك في واقع الأمر، فلا يوجد ساتر لطائر صغير حتى في تلك البقاع الخضراء المكشوفة بأكملها، جلست قليلًا بلا أمل بينما يزداد صخب الصوت، حتى تراءت لي طائرة قادمة من الشرق كانت تحلق على ارتفاع كبير، ولكن بمجرد أن نظرت إليها هبطت قرابة المائة قدم مطوقة بقعة التلال تلك في دوائر على نحو ضيق، تمامًا كما يفعل الصقر قبيل وثبة الانقضاض..

أما الآن فهي تحلق على نحو منخفض جدًّا، يصوب قائدها نظره نحوي، إلى أن تمكنت من رؤية أحد راكبيها الاثنين يتفحصني خلال عويناته، وفجأة بدأت في الارتفاع في حركات خاطفة وما تلى ذلك أني أدركت كونه إقلاعًا سريعًا ناحية الشرق مرة أخرى حتى بدت لي نقطة سوداء في تلك السماء الضاربة إلى الزرقة، أصابني ذلك بهياج في تفكيري، إذ قام أعدائي بتحديد موقعي، وما سيلي ذلك إلا تطويق بالرجال، لم أكن أعرف مدى نفوذهم، هيمنتهم، لكنني بت أكيدًا من كونه كافيًا ووافيًا.

رأت تلك الطائرة دراجتي الهوائية، وسوف تستنتج أنني سأحاول الفرار على الطريق، ظللت أقود تلك الماكينة من على بعد مائة ياردة من الطريق السريع، وقمت بغمرها في بئر لمستنقع مكسو بالطحالب، إذ غرقت داخل بركة العشب تلك الممتزج بالمياه، ومن ثم قمت بتسلق هضبة صغيرة استطعت من خلالها رؤية اثنين من الوديان، لم يكن هناك أي شيء لافت للنظر في ذلك الأفق من شأنه أن يعيقهم، إذ ذكرت من قبل أنه لا يوجد أي ساتر في المكان بأكمله يمكنه إخفاء جرذ، ومع انقضاء اليوم أكثر غمره ضوء نقي خافت يتحلى بعبير الواحات في جنوب إفريقيا، لو أننا في موقف آخر لأحببت ذلك المكان، ولكنه بدا لي خانقًا في ذلك الوقت.

تلك الأراضي الخضراء الواسعة كانت كجدران السجن، وهواء التل الشديد هذا بدا كأنفاس داخل زنزانة، ألقيت عملة معدنية يرشدني جانب الحاكم فيها إلى اليمين والجانب الآخر يسارًا، وقد سقطت

على جانبها الأول، لذا اتجهت كما قالت، ولم يمر القليل إلا وتوقفت أمام حافة منحدر بين سلسلة تلال تعد المعبر الوحيد للطريق، إذ تراءى لي شيء يتحرك على الطريق العام على بعد عشرة أميال، اعتقدت أنها سيارة، أما عن طريق العبور هذا فكان يقبع تحته أرض خضراء تبدو متعرجة، والتي تمتلأ بأكوام الشجر، وكأنني وهبت أعين الحدأة بحياتي في تلك الواحة، إذ مكنتني من رؤية أشياء يحتاج الإنسان إلى تلسكوب لرؤيتها.

أما بعيدًا أسفل المنحدر، فقد كان هناك عدة رجال يتقدمون كصف من المتعقبين المتأهبين لتبادل إطلاق النار، حاولت استراق نظرة على الأفق، ولكن ذلك الطريق بدا موصدًا بالنسبة لي، كان عليّ تجربة طريق التلال المتوجه ناحية الجنوب، بينما كانت تقترب السيارة التي لاحظتها أكثر، ورغم ذلك فلاتزال بعيدة مع وجود تلك المنحدرات أمامها، ركضت بكل قوتي، بينما أواصل الانحناء منخفضًا، أركض متفحصًا حافة التل تسبقني، هل يخيل إلي؟ أم أنني رأيت شخصًا واحدًا أو اثنين؟ أو ربما أكثر ويتحركون في واد وراء ذلك؟

فإذا كنت مطوقًا من جميع الجوانب في بقعة من الأرض، فليس هناك إلا فرصة واحدة للفرار.

يتعين عليك البقاء في تلك البقعة، والسماح لأعدائك بالبحث عنك دون العثور عليك، هذا ما يبدو منطقيًّا، لكن كيف على وجه تلك الأرض قد يمكنني تجنب أن يتم ملاحظتي في المكان الذي يشبه غطاء الطاولة القماشي هذا؟

كان يتوجب عليّ دفن نفسي وصولًا إلى العنق في ذاك الوحل، الاستلقاء تحت المياه، أو تسلق أعلى شجرة، لكني لم أمتلك عصًا خشبية حتى، كما أن أفواه المستنقعات كانت صغيرة الحجم، كانت الثقوب المستوية صغيرة الحجم كبريكات، ومجرى التيار المتدفق يبدو ضعيفًا هو الآخر، لم يكن هناك سوى أفرع نبات الخلنج القصيرة، والتلال المكشوفة، والطريق السريع، ومن ثم منعطف ضيق من ذلك الطريق، إلى جانب كومة من الحجارة، عثرت على مرمم الطرق، كان قد وصل لتوه بينما يطرح مطرقته أرضًا من شدة التعب.

نظر إليّ نظرة شك وقال متثائبًا وكأنه يحدث العالم بأسره:

«لعن اليوم الذي تركت فيه المرعى! كنت أرأس نفسي، أما الآن فأنا عبد للحكومة، مقيد إلى جانب الطريق هكذا».

ومن ثم رفع المطرقة وضرب حجرًا حتى أسقطها وهو يواصل النحيب، واضعًا كلتا يديه على أذنيه:

«رأفة بي! رأسي يكاد يحترق».

لقد كان شخصية مستسلمة على نحو واضح، في نفس حجمي لكنه مقوسًا مقارنة بي، بينما تنمو لحية كثيفة على ذقنه مرتديًا زوجًا من العوينات الكبيرة.

صاح مرة أخرى وهو يقول:

«أنا غير قادر على ذلك.. أبلغني ذلك الرجل، سأغدو طريح الفراش».

إلى أن سألته عما هي المشكلة، على الرغم من كونها واضحة بما يكفي، فأجابني:

«المشكلة هي أنني لست بحال جيدة»..

«ليلة أمس كان طبيبي قلقًا، ولكنني واصلت الرقص مع أصدقائي بعدما تمادينا في احتساء الشراب، وهأنذا، لن يمكنني النظر للنبيذ حتى، فقد أصبحت مسألة الفراش تلك متفقًا عليها».

واستكمل متنهدًا:

«إن الحديث سهل، لكني تسلمت رسالة بريدية يخبرونني فيها أن مراقب الطرق الجديد سيصل بحلول اليوم، سيأتي ولن يجدني، إما أن يجدني فاقدًا لعقلي هكذا، ولكني في كل الأحوال رجل قد انتهي أمره، سآوي إلى فراشي وأواصل قول إنني لست عاجزًا، ولكني لا أعتقد بأن ذلك سيساعدني، أعرف أنهم يعرفونني جيدًا، وهذا هو مصدر إلهامي الوحيد».

سألته:

«هل يعرفك ذلك المراقب الجديد؟».

فأجابني:

«لا ليس هو، فقد تسلم الوظيفة من أسبوع مضي».

«أين منزلك؟».

فأرشدني بإصبع متذبذب نحو كوخ بجانب مجرى المياه المتدفق.

فقلت له:

«حسنًا، عد إلى فراشك.. واحظَ بنوم سالم، سآخذ وظيفتك قليلًا وأقابل مراقب الطرق هذا».

فحدق في وجهي مندهشًا، وبعدما استقر كلامي في رأسه المشوش، احتل وجهه ابتسامة سكير حمقاء.

وصاح:

«أنت هو نعم الصديق، سيكون من السهل عليك تدبر الموقف، لقد انتهيت من كل الأمور التي قد تفاجئك، عليك العمل فقط على ذلك التصدع، فقط احمل المعدات، وحاول استخدام المصهور لإصلاح ما حدث بالطريق هذا الصباح، اسمي هو «ألكسندر تيرنبول» ولي سبعة أعوام في تلك الحرفة، وعشرون يومًا في تلك المنطقة «ليثين ووتر» - مصب مائي في اسكتلندا - يلقبني أصدقائي «سبيكي» منذ فترة قليلة نظرًا لكوني أرتدي تلك العوينات، أعطيك ذلك كي تتحدث بصورة مقبولة مع ذلك المراقب، كما عليك دعوته سيدي، فيشعر بالامتنان حينها، أما عني فسوف أعود قرابة منتصف النهار.

اقترضت نظارته، قبعته القديمة المتسخة، جردته من معطفه، صدريته، وقلادته أيضًا، ثم أعطيتهم إليه كي يحملهم للمنزل، كما لملمت له كذلك أعقاب سجائره الكريهة الملطخة بالوحل كبقية ممتلكاته،

أما هو فأرشدني إلى مهامي البسيطة تلك، ومن بعدها سار متمهلًا دون ضجيج كمن يساق إلى الفراش، ربما الفراش هو من يرأسه الآن، لكنني ظللت أفكر، أتضرع كي يصل آمنًا قبل قدوم أصدقائي إلى المشهد، ثم شرعت أعمل على ما أرتديه لأجل الدور.

فككت ياقة قميصي، ذات اللونين الأزرق والأبيض، تمامًا كرداء الحراث، وكشفت عن رقبة بنية مثلي مثل أي حرفي متجول، شمرت عن سواعدي، إذ بدوت كحداد ذي ساعد خشن متأثرًا بأشعة الشمس مع ندوب قديمة، ومن ثم قمت بإزالة غبار الطريق من على حذائي وسروالي، الذي ارتديته معقودًا برباط حتى الركبة، ثم شرعت في العمل على وجهي، إذ استخدمت حفنة من الغبار لصنع علامة حول رقبتي، المكان الذي من المتوقع أن يتوقف عنده وضوء سيد «تورنبول» في يوم أحد.

فركت قدرًا كافيًا من الوحل على سمرة وجنتي أيضًا، ولا شك في أن أعين مرمم طرق عليها أن تكن ملتهبة قليلًا، لذا جاهدت في الحصول على بعض الغبار داخلهما، وبفعل الفرك القوي من جهتي فقد نتج أثر غمامة عليهما بالفعل، كانت الساندويتشات التي أعطاني إياها السيد هاري قد أخذت مع المعطف حينها، لكن غداء مرمم الطريق المغلف في وشاح أحمر كان تحت تصرفي تمامًا، إذ تناولت بتلذذ كبير شرائح سميكة من الكعك مع الجبن، واحتسيت قليلًا من الشاي البارد.

وفي ذلك الوشاح كانت هناك صحيفة محلية معقودة برباط ومعنونة باسم «السيد تيرنبول» والتي كانت بالتأكيد من شأنها أن تشغل وقت فراغه في منتصف اليوم، أعدت الحزمة كما كانت مرة أخرى، ووضعت الصحيفة إلى جانبها على نحو جلي، لم يشعرني ذلك الحذاء براحة كاملة، ولكن بعد مجاهدة في رفس الأحجار استطعت تثبيتها جيدًا حتى بدا مظهري الخارجي يميز عاملًا بالطرق، ومن ثم قمت بقرض أظافري إلى أن تشققت الحواف وأصبحت غير متساوية، فالرجال المنوط بي التناغم معهم لن يفوتهم أية تفاصيل، كما أنني فككت أحد أربطة الحذاء وأعدت عقدته بطريقة خرقاء، بينما أرخيت الآخر حتى برزت جواربي الرمادية السميكة من الجزء العلوي به.

كل ذلك دون أن تظهر علامة لأي شيء على الطريق، السيارة التي لمحتها قبيل نصف ساعة من المؤكد أنها قد وصلت لوجهتها، اكتملت محاولات تبرجي، فأخذت عربة اليد المحملة بالغبار وشرعت أقطع المسافة من وإلى كومة الأحجار قرابة المائة ياردة، أتذكر رجلًا في روديسيا، والذي كان يقوم بكثير من الأعمال الغريبة كتلك في يومه، إذ أخبرني أن سر لعب أي دور هو تصديق نفسك، فلن تتمكن أبدًا من النجاح بذلك إلا إذا تمكنت من إقناع نفسك بأنك هو، لذلك فقد أوقفت سيل الأفكار الأخرى وجعلتها منصبة فقط على ترميم الطريق، بدأت أفكر في الكوخ الصغير مدعيًا أنه منزل لي قضيت فيه سنوات أعمل بالرعي في نهر ليثين، أسهبت في التفكير حتى سكن عقلي وكأنه مسترخيًا على فراش مع زجاجة من الويسكي الرخيص، ولايزال شيئًا لم يظهر على تلك الطريق الممتدة أمامي، إلى أن خرجت عليّ غنمة تجول محدقة في وجهي.

ومن ثم هبط أحد طيور البلشونيات إلى بركة في مجرى النهر وبدأ في اصطياد السمك، دون أن يلحظني تمامًا، إذ ذهبت لأدفع حمولات الحجارة بخطوات ثقيلة مقارنة بشخص يمتهن تلك الحرفة، سرعان ما ازدادت وتيرتي ليتصلب الغبار على وجهي كأنه حصى رملية، وكنت بالفعل قد شرعت أحسب الساعات منتظرًا حلول المساء كي يضع حدًّا لعمل ترنبول الرتيب هذا، وفجأة تسلل لمسامعي

صوت قادم من الطريق، وبينما أتفحص تراءت لي سيارة من طراز «فورد» ذات المقعدين، وشاب بوجه مستدير يعتمر قبعة لاعبي البولنج يسأل:

«هل أنت ألكساندر تورنبول؟».

«أنا المسئول الجديد عن الطريق، أنت تعيش في «بلاك هوب فوت»، وتحمل مسئولية الجزء الممتد من «ليدلوبيرز» إلى «ريجز»؟ حسنًا! نصيب عادل من الطرق يا تيرنبول، أراك فيما بعد، صباحك خير، ستتعرف علي في المرة القادمة التي تراني فيها».

اتضح لي أن تظاهري كان جيدًا بما يكفي لذلك المراقب الباعث على الرهبة، انصرفت إلى عملي، ومع تحول الصباح إلى وقت الظهيرة انتابني شعور لحظيًّا بالهلع نتيجة لحركة السير، إذ طافت عربة الخباز في التل وابتعت منه بسكويتًا بنكهة الزنجبيل الذي أخفيته في جيب بنطالي لوقت حاجة، ومن ثم فقد مر أيضًا راع يتبعه قطيع أغنام والذي أزعجني قليلًا بسؤاله بنبرة عالية:

«ماذا حدث لسبيكي؟».

فأجبته:

«إنه في فراشه يعاني من المغص» إلى أن مر وذهب.

وبحلول منتصف النهار تسللت التل سيارة كبيرة، مرّت بعيدًا، ومن ثم توقفت على بعد مائة ياردة، بينما ترجل راكبوها الثلاثة وساروا نحوي، اثنين من هؤلاء الرجال كنت قد رأيتهم من قبل خلال نافذة نافذة نزل «جالواي» أحدهما نحيل عابس الوجه ذي نظرة ثاقبة، والآخر مرتاح ومبتسم، أما الثالث فبدا كرجل ريفي، بيطري ربما، أو مزارع صغير. كان يرتدي سترة خفيفة، وذا عين لامعة ويقظة، وهنا قال الأخير:

«صباح الخير.. عمل رائع».

لم أكن أنظر إليهم عن قرب، والآن وعندنا دنوا مني وبادروا بالكلام، حاولت استقامة ظهري ببطء وألم بعدما عدلت عن وضعية الترميم تلك، بصقت بثقة، وينظر إليهم بثبات قبل الرد، إذ واجهت ثلاثة أزواج من العيون التي تبدو كمن فقد شيئًا.

فأجبته بتعنت:

«هناك وظائف عسيرة وهناك أفضل من ذلك..

.. أنا أفضل ما لديك بالأحرى، أجلس طوال اليوم في ملابسي الحريرية بين الوسائد، إنه أنت وسياراتك من يخربون تلك الطرق، إذا كنت ثريًّا حقًّا فعليك أنت أن تصلح ما تقوم بإفساده». كان الرجل ذا العين الثاقبة ينظر إلى الصحيفة الملقاة إلى جانب صرة توربول للطعام، وقال:

«أرى أنك قد تسلمت الجريدة في الوقت المناسب».

فرمقتها بنظرة سريعة ثم أجبته:

«وقت مناسب! انظر إلى تاريخ صدور الجريدة يا سيدي، إنها من السبت الماضي أي متأخرة لستة أيام».

فقام بالتقاطتها وألقى نظرة على العناوين الرئيسية ومن ثم وضعها أرضًا مرة أخرى.

كان أحد الاثنين الآخرين يتفحص حذائي بينما جذب انتباههم بالتفوه بكلمة ألمانية ثم نظر لي قائلًا:

«لديك ذوق جيد في اختيار الأحذية، فهما بالتأكيد ليسوا من صنع إسكافي البلدة».

فجاء ردي سريعًا:

«إنهما ليسا كذلك، لقد صنعوا في لندن، تحصلت عليهم مجانًا من رجل نبيل جاء ليصطاد هنا بالعام الماضي»، «ماذا كان يدعى هذا الرجل؟» قلتها بينما أحك رأسي كمن يحاول التذكر.

فتحدث ذلك الأملس بالألمانية مرة أخرى ثم قال:

«دعونا نواصل طريقنا، هذا الزميل على ما يرام» وتوجهوا إلي بسؤال أخير:

«هل رأيت مارًّا في وقت باكر من هذا الصباح؟ قد يكون على دراجة هوائية أو سائرًا على الأقدام؟».

كدت أقع في الفخ تقريبًا بإخباري قصة عن راكب دراجة نارية مسرعًا قد مر في الفجر، لكن الشعور بالخطر قد تملكني فأجبته:

«لم أكن مستيقظًا في وقت باكر من اليوم، فقد كان طبيبي قلقًا ليلة أمس، لذا استغرقت في النوم حتى وقت متأخر، فتحت بوابة المنزل حوالي الساعة السابعة، ولم يكن هناك كائنًا كان على الطريق، فمنذ مجيئي هنا لم يمر بي سوى الخباز وقطيع غنم قادم من «روتشيل»، بالإضافة لكم أيها السادة».

أعطاني أحدهم سيجارًا، أمسكتها بحذر، ومن ثم أسكنتها في حزمة الأطعمة الخاصة بتورنبول..

دلفوا داخل سيارتهم وتواروا عن الأنظار في غضون ثلاث دقائق، فقفز قلبي في ارتياح هائل، وعدت لنقل الحجارة بالعربة مرة أخرى، واستمر الوضع على نحو جيد هكذا إلى أن عادت السيارة أدراجها بعد عشر دقائق، ولوح أحدهم بيده إليّ، فأمثال هؤلاء لا يتركون شيئًا للصدفة، كنت قد انتهيت من الخبز والجبن الخاص بترونبول، وكدت أقترب من إنهاء العمل على تلك الحجارة، وكانت الخطوة التالية هي ما أربكتني، فلم أستطع مواصلة العمل على هذا الطريق لفترة أطول، ولا شك أن رحمة العناية الإلهية هي ما أبقت سيد ترونبول داخل منزله وإلا كان ليسبب ظهوره في الصورة مشكلة كبيرة، كما كان لدي حدس بأن الوادي لازال مطوقًا بإحكام، إذ إنني سأقابل أيًّا من هؤلاء السائلين إن سرت بأي اتجاه.

ولكن كان يتعين عليّ الخروج، فلن تحتمل شجاعة أي إنسان أن يقف هكذا، بينما يتم التجسس عليه، مكثت في موقعي حتى الساعة الخامسة وبمرور الوقت اتخذت قرارًا بالذهاب إلى منزل تورنبول عند حلول الليل وأجرب حظي بعبور تلك التلال في الظلام، وإذ فجأة تخرج سيارة جديدة على الطريق، وأبطأت سرعتها على بعد ياردة أو اثنتين مني، حيث ثارت بعض الرياح بينما أراد راكبها أن يشعل

سيجاره، كانت سيارة جولات سياحية بمساحة خلفية ممتلئة بمجموعة من الأمتعة والحقائب، رجل واحد يجلس داخلها وبمحض الصدفة اتضح لي أني أعرفه، إذ يدعى «مارماروك جوبلي» أكثر البشر إزعاجًا، كان واحدًا من سماسرة البورصة الملاعين، والذي ينفذ أعماله بتملّق طبقة النبلاء الذين في ريعان شبابهم.

إضافة إلى السيدات الحمقاوات الأكبر سنًّا، كان «مارمي» شخصية معروفة، كما تراءى لي ذلك، في الحفلات الراقصة، السباقات الرياضية، والمنازل الريفية كذلك، كما يعد داهية في إتمام أي عمل مخز، إذ لا يمانع الزحف منبطحًا قرابة الميل تجاه أي شيء يحمل لقبًا هامًّا أو يساوي مليونًا.

كان لدي عرض عمل من قبل شركته عندما جئت إلى لندن، وكان جيدًا بما فيه الكفاية لدعوتي على العشاء في ناديه، إذ ظل يتباهى طوال الحديث مثرثرًا، حتى أصابتني عجرفته بالإعياء، وعندما سألت رجلًا عنه بعدئذ لما لم يقم أحدهم بركل هذا الكائن من قبل؟ قيل لي إن الإنجليز يولون احترامًا في المعاملة لمن هو أقل مكانة منهم. على أية حال فها هو الآن، متأنق الثياب، في سيارة فاخرة جديدة، ومن الواضح أنه في طريقه لزيارة بضعة من أصدقائه الماكرين.

تملكني الجنون فجأة، وفي غضون ثانية قفزت داخل الجزء الخلفي من السيارة وأمسكت بكتفه قائلًا:

«أهلًا، جوبلي.. مصادفة جيدة للقاء يا رجل».

فزع بدوره بينما بدت لحيته على وشك التساقط وهو يحدق في وجهي لاهثًا:

«من أنت بحق الجحيم؟».

فقلت له:

«أدعى هاناي.. من روديسيا، أتتذكر؟».

فاختنق في الحديث قائلًا:

«يا إلهي، القاتل!».

فأجبته:

«حسنًا، وستكون هناك جريمة قتل ثانية يا عزيزي، إن لم تفعل ما آمرك به، أعطني معطفك هذا وتلك القبعة أيضًا!».

فاستجاب لطلبي كونه مصابًا بالهلع، ومن ثم فقمت بارتداء معطفه فوق بنطالي المتسخ وقميصي البذيء كذلك، أحكمت إغلاق أزرته كاملة والتي من شأنها أن تخفي علة الياقة، ألصقت القبعة برأسي وأصبحت قفازاته تحت تصرفي أيضًا.. إذ تحول مرمم الطرق الملطخ بالغبار إلى واحد من أكثر السائقين أناقة في اسكتلندا بدقيقة واحدة، ومن ثم وضعت قبعة ترونبول التي لا يمكنها وصفها حتى على رأس سيد «جوبلي»، وأخبرته بأن يبقيها هكذا، وبجانب من الصعوبة نجحت في إدارة السيارة، كانت نيتي هي العودة للطريق الذي جاء منه، أمام المراقبين الذي شهدوا مروره من قبل، لذا فمن

المحتمل أن يسمحوا له بالمرور دون تعليق، كما أن شخصية «مارمي» لم تكن تشبهني بأي حال من الأحوال.

قلت له بعدها:

«والآن، يا صغيري، اجلس ساكنًا وكن فتى جيدًا، فأنا لا أرغب في إيذائك، فأنا أنوي اقتراض سيارتك لساعة أو ساعتين. ولكن إذا حكت لي أي حيل، إضافة لأنه إذا فتحت فمك، فأؤكد لك وربي شاهد على ذلك أنني على يقين من أن هناك إله فوقي سأنتزع رقبتك، هل تفهم؟».

من ناحيتي فقد تمتعت بتلك الجولة المسائية، إذ قدنا قرابة الثمانية أميال هبوطًا للوادي، مرورًا بقرية أو اثنتين، ولم أستطع منع نفسي من ملاحظة عدد من المتسكعين ذوي المظهر الغريب على جانب الطريق، أم عن هؤلاء المراقبين الذين كان لديهم الكثير ليقولوه لي إذا ما أتيت لهم في زي مغاير أو بصحبة أحد آخر، إذ نظروا بعد اكتراث هكذا بينما لوح أحدهم بقبعته محييًا تحية استجبت لها بلطف. ومع حلول الظلام انعطفت لواد جانبي والذي تذكرت من الخريطة أنه يقودك إلى زاوية شبه مهجورة من تلك التلال، وسرعان ما بدأت القرى في الاختفاء خلفنا، تتبعها الحقول، ومن بعدها الكوخ القائم على جانب الطريق كذلك.

وفي حين ذلك كنا قد سلكنا طريقًا معزولاً، إذ يشتد ظلام الليل مع بريق أشعة الغروب التي تنعكس على برك المستنقعات. توقفنا هناك، أبطلت محرك السيارة بلطف وأعدت لسيد جوبلي متعلقاته قائلًا:

«جزيل الشكر.. اتضح أن هناك فائدة منك أكثر مما اعتقدت، انصرف الآن وجد الشرطة».

بينما جلست على سفح التل، أشاهد ضوء الليل الخافت يتضاءل، وهو يعكس الجرائم المتنوعة التي قمت بارتكابها، فعلى عكس الاعتقاد العام أنا لست قاتلًا، لكنني أصبحت كاذبًا آثمًا، محتالًا وقحًا، وقاطع طرق ذات ذوق خاص بالسيارات من النوع الفاخر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السادس

مغامرة عالم الآثار الأصلع

قضيت ليلي على السفح الجانبي للتل، في بقعة محجوبة عن الرياح حيث ينمو نبات الخلنج طويلًا ناعم الملمس، كانت الأجواء باردة، إذ لم يكن لديّ معطف ولا صدار حتى، إذ كانوا جميعهم في حوزة تورنبول، وكذلك كتيب «سكودر»، وساعتي.. وأسوأ ما في ذلك غليوني مع كيس التبغ الخاص به، لم يرافقني سوى نقودي التي احتفظت بها في سواري، وحوالي نصف باوند من بسكويت الزنجبيل في جيب السروال، تناولت قرابة نصف ذلك البسكويت، وبإقحام جسدي في كومة النباتات تحصلت على بعض الدفء الذي أردته، فارتفعت معنوياتي، وبدأت استمتع بهذه اللعبة المجنونة التي تشبه الغميضة في تفاصيلها، فحتى الآن أنا محظوظ بأعجوبة، كل من بائع الحليب، والأديب مالك النزل، والسيد هاري، ومرمم الطرق، و«مارمي» الأحمق كانوا جميعًا فصولًا من مسرحية الحظ الجيد الذي لا أستحقه.

بطريقة ما، أعطاني ذلك شعورًا أنني سأنجح في مساعيّ، كانت مشكلتي الرئيسية هي أنني أتضور جوعًا، فعندما ينهي يهودي حياته في المدينة ويقام تحقيق، عادة ما تفيد الصحف بأن المتوفي كان ممدًّا بالطعام جيدًا، أتذكر ما حاز تفكيري بأنهم لن يقولون عني نفس الشيء إذا ما دججت عنقي في أي مستنقع، استلقيت أجلد ذاتي بينما أتناول بسكويت الزنجبيل الذي يعكس مدى الوضع المؤلم هذا، بينما أتذكر كل الطعام الذي حظيت به في لندن.

حيث نقانق «بادوك» المقرمشة، نكهة اللحم المقدد، والبيض المسلوق متناسق الشكل، أتذكر كم كان يقشعر أنفي بسببهم!

وكذلك شرائح اللحم والسمك التي كانوا يعدونها في النادي، ولحم الخنزير المدخن الذي كان يتوسط أي منضدة باردة.

اشتهت روحي كل ذلك وشغلت أفكاري بكل نوع طعام صالح للأكل في حينها، إلى أن استقرت على رغبتها العارمة في شريحة لحم لاذعة ربما بربع جالون من الزبدة، وفي ظل ذلك الشوق الميئوس منه لأوهام الطعام اللذيذ غفوت نائمًا، لأفيق بعد ساعة من بزوغ الفجر وأنا أشعر بالبرد الشديد وبجسد شبه متصلب، استغرق الأمر مني بعض الوقت لأتذكر أين كنت، كوني كنت منهكًا وتثاقلت في النوم، تراءت لي سماء ضبابية ضاربة إلى الزرقة خلال أفرع نبات الخلنج المتشابكة في البداية، ثم وضعت حذائي بعناية داخل شجيرة توت أزرق واستندت إلى ذراعي كي أنظر لأسفل تجاه الوادي، نظرة واحدة جعلتني أرتدي حذائي في عجالة كبيرة، إذ كان هناك رجال في الأسفل، على بعد أقل من ربع ميل، يصطفون على جانب التل كمشجعين ويقاومون أفرع الشجيرات، لم يتوان «مارمي» في البحث عن طريقة انتقام، زحفت من جهتي كي أبقى مستترًا في صخرة، لألمح خندقًا ضئيلًا ينحدر في قبالة الجبل، والذي قادني في الحال إلى ممر صخري آخر، اندفعت منه إلى قمة تلك السلسلة من التلال، لألقي نظرة إلى الوراء وأتأكد أنني لم أكتشف بعد، كان ملاحقيني يجولون المكان

بصبر نافذ ويتقدمون صعودًا، بينما ركضت لقرابة النصف ميل حتى أيقنت أنني على أعلى قمة نهائية للوادي.

ومن ثم فقد تبينت لهم، ولاحظني أحدهم على الفور، فنقل الخبر للآخرين، حتى تسلل لأذنيّ ضجيج قادم من الأسفل، ورأيت طابور البحث يغير وجهته، تظاهرت بالتراجع قليلًا، ولكن بدلاً من ذلك عدت الطريق الذي أتيت منه. وفي غضون عشرين دقيقة كنت وراء قمة التل التي تطل على المكان الذي غفوت فيه. ومن موقعي هذا، شعرت برضا كبير بينما أرى ملاحقيني هؤلاء يصعدون لقمة التل لتتبع أثر خاطئ لا أمل منه، إذ كان أمامي خيار في تلك الطرق واخترت الطريق الصحيح الذي سرعان ما وضع حاجزًا بيني وبين خصومي.

تلك المناورة أعادت لجسدي الدفء، وكنت قد بدأت أستمتع بشكل مثير للدهشة، إذ شرعت أتناول فطوري ببقايا البسكويت الملطخة بالغبار، لم أكن أعرف سوى القليل عن هذا البلد، ولم يكن لدي فكرة عما سأفعله، فقط ألقيت ثقتي كاملة على قوة ساقيّ، لكنني كنت واعيًا تمامًا بأن أولئك الذين يسعون خلفي سيكونون على دراية كافية ببقاع هذه الأرض، وأن جهلي بها سيشكل عقبة كبيرة، رأيت أمامي موجة من التلال على نحو شاهق تجاه الجنوب، أما شمالًا فتكمن قمم كبيرة من شأنها أن تفصل بين الأودية العريضة والضحلة، بينما تبدو حافة التل التي اخترتها وكأنها ستتلاشى بعد ميل أو اثنين إلى داخل تلك الأرض البور، مما جعلها جيدة بما يكفي كوجهة أخرى.

أعطاني دهائي هذا أفضلية عادلة، إذ لم تمض عشرون دقيقة إلا وكان الوادي بأكمله خلفي وتتراءى لي رءوس أولئك الذين يتتبعوني، والذين استدعوا الشرطة لمساعدتهم، حيث بدا الرجال الذين استطعت رؤيتهم كالرعاة أو مراقبي عمليات الصيد، شرعوا ينادون بصوت عال فور رؤيتي وأنا ألوح لهم مغادرًا، فأقحموا أنفسهم بالوادي لتسلق الحافة التي أقبع أعلاها، بينما يسكن الآخرون جانبهم من التل، حتى شعرت كأنني مشترك في لعبة صبيانية من كلاب الصيد والأرانب التي تهرب منها، ولكن سرعان ما بدأت الأمور تئول لما هو أبعد ما يكون عن اللعب.

كان هؤلاء المتآمرون القادمون خلفي رجالًا ضخامًا يعيثون في وطنهم الخاص، وبالنظر إلى الوراء تراءى لي ثلاثة أشخاص فقط يتبعونني مباشرة، وخمنت أن الآخرين قد سلكوا طريقًا غير مباشر للنيل مني، إذ سيصبح افتقاري للعلم بالمنطقة جيدًا للغاية بالنسبة لهم، لذا قررت الخروج من الأغصان المتشابكة تلك إلى زاوية المستنقع التي رأيتها من العلية، لا بد لي من زيادة المسافة حتى يمكنني البقاء على بعد كاف منهم، وآمنت باستطاعتي في إيجاد الأرض المناسبة لذلك، لو كان هناك ساتر ما لحاولت الطواف خلسة، ولكن على هذه المنحدرات العارية كان بإمكانك رؤية ذبابة على بعد ميل.

أملي الوحيد كان يتوقف على طول ساقي واتجاه الريح، لكني كنت بحاجة إلى بقعة أسهل لذلك، فلم أولد متسلقًا للجبال، لكم كنت أتوق لمهر إفريقي بارع آنذاك! ضاعفت جهودي وقفزت من الحافة التي أعتليها إلى أسفل قبيل ظهور أي كائن منهم في الأفق، وخرجت على أحد الطرق السريعة التي كانت تربط بين واديين، وكل ما كان أمامي هو حقل كبير به قمة مكللة بنوع غريب من الأشجار.

وفي نهاية الحاجز الذي يمتد على طول الطريق كانت البوابة، التي يقودك منها طريق ممتلئ بالشجيرات، عبرت الحاجز وتتبعته، وبعد أكثر من مائة ياردة بعدما أصبحت بعيدًا عن الطريق السريع حتى انتهى السياج العشبي، وتحول لكونه طريقًا ممهدًا جدًّا، والذي كان من الواضح أنه يلقى جانبًا من العناية، إذ كان يقودك إلى منزل أحدهم، وهنا بدأت أفكر في القيام بشيء، فحتى هذه اللحظة كان الحظ حليفي ولربما تكمن فرصتي الأفضل في ذلك المأوى النائي.

على أية حال، كانت هناك أشجار، وهذا يضمن وجود ساتر، لم أكن أراقب الطريق، ولكن تلك النباتات التي تحاوط المكان على يميني كان تشكل حجابًا مقبولًا إلى حد ما، لقد تصرفت بشكل صحيح، ولكني لم أكف عن النظر إلى الوراء حتى تراءى لي أولئك المتعقبين وهم يتسلقون القمة التي نزلت منها، بعد ذلك لم أنظر للخلف ثانية، إذ لم يكن لدي وقت، ركضت شبه زاحف في تلك البقاع المفتوحة، حتى أنني اجتزت جزءًا كبيرًا من المياه الضحلة، إلى أن وجدت منزلًا مهجورًا يصطف حوله سياج النباتات في حديقة مكسوة بالأعشاب، إذ كنت فيما بين قدر قليل من التبن وأكاد أقترب من صوبة زراعية لنبات التنوب، بينما تراءى لي خلالها مدخنات المنزل على بعد مئات الياردات ناحية اليسار.

فهجرت تلك البقعة وعبرت حاجزًا آخر لأقف على موجة من العشب الأخضر، وبلمحة خاطفة إلى الوراء تأكدت من كوني بعيدًا عن أنظارهم، كانت الحديقة مكانًا خشنًا للغاية، وكأن العشب قد تم تهذيبه بمنجل بدلًا من جزازة ما، وزُرعت بشكل غير منظم، كان المنزل قبالتي يبدو كمنزل في أي مزرعة عادية، مع جناح خارجي ذات ذوق جميل، وكجزء من ذلك الجناح توجد شرفة زجاجية، ومن خلال الزجاج رأيت وجه رجل مسن يراقبني، فسرت على تلك الحصى الخشنة والعشبلغير المصقول هذا، ودلفت من الشرفة المفتوحة بابها، إلى غرفة ساحرة، مرآة على جانب ومقدار كبير من الكتب على جانب آخر، بينما يتراءى لي العديد منها في غرفة داخلية.

أما على الأرضية، وبدلًا من المنضدات، فتتواجد صناديق كتلك التي نراها في المتحف، مليئة بالعملات المعدنية والأدوات الحجرية الغريبة، كما كان هناك مكتب ذو فراغ أسفله يتسع لركبتيك في المنتصف، يجلس عليه ذلك الرجل النبيل المسن مع بعض الأوراق والمجلدات المفتوحة قبالته، كان وجهه مستديرًا ومشرقًا، مثل «السيد بيكويك»([5]) تعلق عويناته الكبيرة على نهاية أنفه، بينما كان رأسه أملس كقنينة زجاجية، لم يتحرك عندما دخلت، رفع حاجبيه في سلمية تامة وانتظر شروعي في الحديث، وهو الأمر الذي لم يكن هينًا عليّ، بالتحديق قرابة الخمس دقائق كي أخبر غريبًا من أكون وماذا أريد، وكي أخطب وده، ولكني لم أحاول في ذلك، إذ كان هناك شيء ما في عين الرجل الذي يجلس قبالتي، شيء يعكس فطنة وحسن إطلاع، لدرجة أنني لم أتمكن من العثور على كلمة.

حدقت في وجهه وأنا أواصل التلعثم، حتى شرع في الحديث:

«يبدو أنك في عجلة من أمرك يا صديقي».

فأشحت بنظري تجاه النافذة، والتي تعكس المشهد الخارجي خلال ممر في المزرعة، إذ يظهر أولئك الأشخاص على بعد نصف ميل تقريبًا..

فاستكمل:

«آه، لقد فهمت».

ثم حمل عويناته وأمعن النظر متفحصًا إياهم في تأنٍّ قائلًا:

«هارب من العدالة.. أليس كذلك؟ حسنًا، سنتطرق لتلك المسألة وقتما نتفرغ، الآن عليّ أن أبدي احتجاجًا على اقتحام خصوصيتي هكذا من قبل رجل الشرطة القروي الأخرق هذا، اذهب إلى مكتبي، وستجد بابين قبالتك، ادلف في الباب الذي على يسارك وأغلقه خلفك، ستكون آمنًا تمامًا».

قالها ومن ثم أمسك هذا الرائع بقلمه مرة أخرى، أما أنا ففعلت كما أمرت به حتى وجدت نفسي في حجرة مظلمة قليلًا تفوح منها رائحة مواد كيميائية، يتخللها فقط ضوء نوافذ صغيرة أعلى الحائط، بينما يهتز خلفي باب كلما نقرته وكأنه بوابة لخزنة ما.

ها أنا مرة أخرى أعثر على ملاذ غير متوقع، ولكني لم أكن مرتاحًا في نفس الوقت، إذ كان هناك شيء ما حول ذلك المسن، شيء أصابني بالحيرة والروع كذلك، فلقد كان متساهلًا للغاية، مستعدًّا كما لو كان يتوقع قدومي، بعينين تشعان بالذكاء على نحو مخيف، لم يتسلل إلي أي صوت في هذا المكان المظلم. على كل حال، كنت أعي أن الشرطة قد تقوم بتفتيش المنزل، وإذا فعلوا ذلك، فبالطبع سيرغبون في معرفة ما وراء هذا الباب، حاولت أن أتمالك نفسي في صبر، وأن أتناسى حقيقة أنني أتضور جوعًا، ثم فكرت في الجانب المشرق بأن ذلك الرجل النبيل لن يمكنه تقديم وجبة إلي، وشرعت بالفعل أشكل مكونات فطوري، فبعض اللحم المقدد مع البيض من شأنها أن يدخلا السرور على قلبي، لكني أرغب في أكثر أجزاء ذلك اللحم دسامة، وحوالي خمسين بيضة، وبينما يسيل لعابي هكذا نقلا أحدهم الباب ففتح، لينبثق ضوء الشمس في الغرفة التي تراءى لي صاحبها جالسًا على كرسيه يرمقني بنظرات فضولية.

فسألت:

«هل ذهبوا؟».

ليجيبني:

«لقد ذهبوا، أقنعتهم بأنك قد عبرت التل بأكمله، لن أختار تدخل الشرطة بيني وبين شخص أنا مبتهج لاستضافته، إنه يوم سعدك سيد ريتشارد هاناي».

تحدث هكذا بينما ترجف أجفانه قليلًا لتغطي عينيه الرمادية الثاقبة تلك، وفي برهة خاطفة مرت أمامي كلمات «سكودر»، عندما جاء على وصف رجل بكونه الأكثر بعثًا على الرهبة في العالم، إذ قال: «يمكنه أن يغمض عينيه مثل الصقر».

فأدركت حينها أنني أسير في المسار الصحيح تجاه خصومي، كان دافعي الأول هو خنق ذلك العجوز والفرار في العراء، ولكنه بدا كمن يتوقع ما أنوي فعله، فابتسم بروية وأومأ مشيرًا برأسه للباب من خلفي، فاستدرت، ليتراءى لي اثنان من خدمه حاملين أسلحتهم، كان على علم باسمي، لكنه لم يرني من قبل.

وبفكر نما في ذهني حينها باحتمالية وجود فرصة ولو ضئيلة أجبته بفظاظة: لا أعرف ماذا تقصد، ومن الذي تدعوه ريتشارد هاناي.. اسمي «آينسلي»

فجاء رده علي بينما لايزال مبتسمًا:

«وماذا إذا؟ فبالطبع لديك العديد، لسنا هنا لنتشاجر حول اسم».

كنت أستجمع شتات نفسي في تلك اللحظة، واعتقدت أن كسوتي التي تخلو من معطف، صدار، أو حتى شيء من شأنه أن يطوق رقبتي لن تخذلني فيما سأفعله، إذ تلبست وجهًا عابسًا وهززت كتفيّ مستهجنًا ثم قلت له:

«أفترض بأنك ستطلق سراحي بعد ذلك، يا لها من عادة لعينة، يا إلهي، أتمنى لو أنني لم أر أبدًا تلك السيارة الملعونة! ها هو المال».. وألقيت أربعة سفرن - جنيه إنجليزي - على المنضدة قبالته.

فاتسعت حدقتا عينيه قليلًا وقال:

« بالطبع لا، لن أخلي سبيلك، فلدي أنا وأصدقائي تسوية خاصة معك، هذا كل ما الأمر، فأنت تعرف أكثر مما يجب عليك معرفته بمقدار يا سيد هاناي، أنت ممثل بارع، لكن ليس بارعًا بما فيه الكفاية».

كان يتحدث بكل ثقة، لكني كنت ألمس شعاع الشك الذي أومض في ذهنه.

فصحت متظاهرًا بالبكاء قائلًا:

«كفاك ثرثرة بحق الرب، كل شيء يسير ضدي، لم يحالفني قليل من الحظ مذ خطيت ساحل «ليث» هذا، ما الضر الجاثم الذي قد يسببه فقير ذو معدة خاوية يتحصل على نقود قد وجدها في سيارة ما؟ هذا كل ما فعلته، ولأجل هذا فقد ظللت أطارد ليومين من قبل هؤلاء الشرطيين البغضاء أعلى تلك التلال الأبغض منهم، لكني أخبرك الآن بأنني اكتفيت من هذا، يمكنك فعل ما ترغب به، أيها العجوز، «نيد آينسلي» لم يعد بداخله ذرة مقاومة»، كان بإمكاني رؤية الشك يتفاقهم لديه، إلى أن سألني:

«هل يمكنك صنع جميل بإخباري حول كل أعمالك مؤخرًا؟

فأجبته بأنين متسول حقيقي:

«لا يمكنني يا سيدي،، إذ لم أتناول طعامًا قرابة يومين حتى الآن، قدم لي بعضًا في البداية ومن ثم ستستمع إلى الحقيقة كاملة». لا بد من أن شعوري بالجوع هذا كان باديًا على وجهي، إذ أشار بدوره إلى أحد الرجال في مدخل الباب، فأحضروا إلي قطعة من فطيرة باردة يصاحبها كأس من الجعة واللذين قمت بالتهامهما كخنزير على الأحرى، كما هو متوقع من «نيد آينسلي» فقد كنت أواكب طباع شخصية كتلك، وبينما أتناول وجبتي تحدث إلي بالألمانية فجأة نظرت له بوجه ذي ملامح فارغة كجدار من الحجر، ومن ثم شرعت أتلو عليه قصتي وكيف ترجلت من سفينة خاصة على ضفاف نهر «ليث» منذ أسبوع مضى، وكنت أسلك طريقي إلى أخي الذي يعيش في «ويجتاون»، نفذت نقودي بينما كنت أحاول قضاء وقت ممتع غير أكيد مما أفعل، وقد كنت مفلسًا تمامًا عندما

وصلت جحر من الشجيرات، ونظرت حولي لتتراءى لي سيارة مخربة قابعة في وضح النهار، بحثت بفضول كي أرى ما حدث حتى وجدت ثلاثة سفرن على مقعدها وآخر على الأرضية

لم يكن هناك أي شخص أو أثر للمالك، لذا فقد احتفظت بالمال، ولكن بطريقة ما قد سعى خلفي، فعندما حاولت صرف سفرن في متجر الخباز صاحت السيدة طلبًا في حضور الشرطة، وبعد ذلك بقليل، وبينما كنت أغسل وجهي في غدير المياه، كانوا على وشك الإمساك بي، ولم أتمكن من الفرار إلا بترك معطفي وصداري من ورائي.

وعلت نبرة صوتي قائلًا:

«بإمكانهم استعادة النقود، فبسبب رزق الخير هذا تكالب أولئك الملاعين على رجل فقير مثلي، أما الآن إذا ما كنت أنت يا سيدي من وجدني فلن يزعجك أحدهم».

فقال لي:

«أنت كاذب بارع يا هاناي».

فاستشطت غضبًا:

«توقف عن ممازحتي، اللعنة عليك! أقول لك اسمي آينسيلي، ولم يسبق لي أن سمعت عن شخص ما يدعى هاناي مذ ولدت، أكاد أرغب بإبلاغ الشرطة عنك أنت وهاناي هذا وأتباعك المحتالين حاملي السلاح هؤلاء... لا لا، سيدي، أستسمحك عذرًا، لم أعنِ ذلك، فأنا ممتن كثيرًا لما فعلته معي، وسأكون شاكرًا إن سمحت لي بالذهاب إلى الساحل في هذه الأثناء.

كان من الواضح أنه كان في حيرة شديدة، فهو لم يرني من قبل، وبالتأكيد كان مظهري قد تغير كثيرًا عما هو عليه من الصور الخاصة بي إذا ما كان يمتلك إحداها، كنت أنيقًا جدًّا وحسن المظهر في لندن، أما الآن فما كنت سوى مشرد تمامًا.

وبينما يدق الجرس أمامه تحدث إلي قائلًا:

«أنا لا أنتوي السماح لك بالرحيل، فإذا كنت في حقيقة الأمر كما تقول فسوف تتاح لك فرصة للخلاص قريبًا، أما إذا كنت كما أعتقد، فلا أظن أنه سيتسنى لك رؤية النور ثانية». إلى أن ظهر خادم ثالث من الشرفة، فأخبره: «جهز لي السيارة في غضون خمس دقائق، سنكون ثلاثتنا على الغداء».

ومن ثم رمقني بنظرة ثاقبة، كانت كالبلاء الأصعب من بين كل ما مررت به.

كان هناك شيء غريب شيطاني في تلك العيون الباردة، الخبيثة، غير الطبيعية بالمرة، والأكثر دهاء على نحو يشبه الجحيم، والتي أصابتني بالهلع كأعين ثعبان لامعة، كان ينتابني دافع قوي بإلقاء نفسي تحت رحمته وأساله في الانضمام إلى جانبه تحت دافع جسماني بحت، فما أنا إلا عقل ضعيف منقاد بفعل روح معنوية أقوى، لكنني نجحت في التماسك حتى بقدرتي على الابتسام قائلًا:

«ستتعرف علي في المرة القادمة، أيها الرئيس».

فتحدث إلى أحد رجاله بالألمانية:

«كارل، ستضع زميلنا هذا في المستودع لحين عودتي، وستكون مسئولاً أمامي عن حراسته».

ومن ثم تم إخراجي من الغرفة مع مسدس مصوبًا تجاه كل أذن.

كان ذلك المستودع غرفة رطبة باعثة على الكآبة، كما لم يكن هناك بساط على الأرضية غير المستوية، ولا شيء يمكنك الجلوس عليه، كانت مظلمة كقبر نظرًا لكون النوافذ مغلقة بإحكام، بحثت لأرى كيف أن الجدران مصطفة بصناديق، وبراميل، وأكياس تحوي بعض المتعلقات الضخمة كما تبدو، كانت تفوح من المكان بأكمله رائحة العفن، ومن ثم أغلق سجاني الباب بمفتاحه وتمكنت من التقاط ضجيج أقدامهم تتحرك استعدادًا لحراستي خارجًا، إذ جلست يائسًا مغلوبًا على أمري هكذا في ذلك الظلام والبرد القارس، أما ذلك العجوز فكان قد انطلق في سيارته للقاء الخسيسين الآخرين اللذين استوقفاني بالأمس..

الآن، فهم قد رأوني كمرمم الطرق، وبالطبع سيتذكرونني، فماذا يفعل عامل مثلي على بعد عشرين ميلاً من بقعته؟ ومطاردًا من الشرطة أيضًا؟ تساؤل أو اثنين من شأنه أن يضعهما على المسار الصحيح، من المحتمل أنهم رأوا السيد تورنبول، وربما «مارمي» أيضًا، وعلى الأرجح أنهم سيربطون صلتي بالسيد هاري، وبعدها سيكون الأمر برمته واضحًا شفافًا، فما الفرصة التي قد تتاح لي في هذا المنزل بتلك الأراضي القاحلة مع ثلاثة مجرمين وخدمهم المسلح؟ بدأت أفكر في أمر الشرطة أيضًا التي تتبع طيفي أعلى التلال، فهم في أي حال مواطنون ورجال صادقون، وتعاملهم مع الأمر سيكون أكثر شفقة من هؤلاء الغيلان الغرباء عنا..

لكنهم لن ينصتوا لي، فإن هذا الشيطان وجفونه تلك لم يستغرق وقتًا طويلًا في التخلص منهم، حتى أنني اعتقدت أنه ربما يكون على علاقة مع الشرطة، على الأغلب فلديه رسائل من وزراء الحكومة والتي من شأنها أن تقدم له كافة الوسائل للتآمر ضد بريطانيا، فتلك هي الطريقة البديهية التي ندير بها سياساتنا في الدولة، سوف يعود ثلاثتهم بعد تناول الغداء، إذ لم يكن منوط بي أن أنتظر أكثر من ساعتين، لكنه كان انتظارًا مهلكًا ببساطة، كوني لم أر أي مخرج من هذه الفوضى، تمنيت لو أنني كنت أمتلك شجاعة «سكودير»، فأقر أنني لم أشعر بالثبات أبدا، فالشيء الوحيد الذي حثني على المواصلة هو حنقي الشديد، إذ كنت أستشيط غضبًا كلما تذكرت كيف أن هؤلاء الجواسيس الثلاثة قد نجحوا في جذبي هكذا، كنت آملًا لو أمكنني من ليّ أحد أعناقهم قبيل أن يطرحوني أرضًا، كلما فكرت في ذلك اشتد غضبي واضطررت إلى النهوض والتحرك في الغرفة، حاولت فتح الأقفال لكنهم كانوا من النوع الذي تم إغلاقه بمفتاح، فلم أستطع تحريكهم، وبينما يتسلل إلي من الخارج صوت حركة الدجاج في أشعة الشمس الدافئة، كنت أبحث فيما بين الأكياس، والصناديق التي لم أتمكن من فتحها، فيما بدت لي تلك الأكياس وكأنها تمتلئ بأشياء كطعام الكلاب، تفوح منها رائحة القرفة. ولكن، أثناء تجولي هكذا في الغرفة وجدت مقبضًا في الحائط يبدو جديرًا بالالتفات له، إذ كان باب لخزانة حائط مغلقة، هززتها، فكانت واهية إلى حد ما.

وبحثًا عن أفضل ما يمكنني فعله فقد وضعت قوتي بأكملها على هذا الباب، وضغطت أكثر على المقبض، حتى تحطم وظننت أنهم قد يأتون لتفحص الأمر، لذا انتظرت قليلاً، ومن ثم شرعت أتكشف

رفوف الخزانة، إذ كان هناك العديد من الأشياء الغريبة هناك، كنت قد عثرت على عود كبريت في جيب سروالي وأشعلت به ضوءًا سرعان ما نفد في أقل من الثانية، لكنه أظهر لي شيئًا واحدًا، حيث كان هناك مخزون صغير من البطاريات الكهربائية على أحد الرفوف، فالتقطت واحدة، كانت تعمل، وبمساعدة ضوئها بحثت أكثر وأكثر.

كانت هناك زجاجات وصناديق من مواد ذات رائحة كريهة، كيماويات لا شك أنها هنا لغرض التجارب، كما كانت هناك لفائف من الأسلاك النحاسية الرفيعة وحفنة من الأقمشة الملطخة بالشحوم، صندوق من المواد المتفجرة، وأكثر من فتيل كذلك، أما بعيدًا في الجزء الخلفي من الرف وجدت صندوقًا من الورق المقوى الداكن، داخلة خزينة خشبية والتي تمكنت من فتحها بالقوة لأعثر على نصف دزينة([6]) من الكتل الرمادية اللبنة، كل منها يقاس بحوالي بوصتين، التقطت واحدة، والتي تفتتت في يدي بسهولة، قمت بشمها ووضع لساني عليها، ومن ثم جلست أفكر فأنا لست مهندسًا للتعدين دون فائدة، فقد تعرفت على مادة «البنتونيت» تلك بمجرد رؤيتها! فبواحدة من تلك الكتل المربعة يمكنني تفجير ذلك المنزل إلى قطع صغيرة.

كنت قد استخدمت تلك الأشياء في روديسيا وأعلم تأثيرها جيدًا، لكن المشكلة كانت أن معلوماتي لم تكن دقيقة، إذ نسيت الكمية المناسبة والطريقة الصحيحة لإعدادها، ولم أكن متأكدًا من التوقيت، لم يكن لدي سوى فكرة مبهمة عنها، وعما يمكنها فعله أيضًا، وعلى الرغم من أنني قد استخدمتها، فلم أتعامل معها بصورة يدوية، لكن واتتني الفرصة الآن، الفرصة الممكنة الوحيدة، فرغم أنها مجازفة ضخمة إلا أنه كان لدي يقين تام أنني لو قمت باستخدامها فالنتائج ستكون في صالحي، إذ كان هناك احتمال بسيط أن أحرر نفسي من هذا، لأنني إن لم أفعل فسوف أشغل حفرة طولها ست أقدام في الحديقة هذا المساء، كانت تلك هي الطريقة المناسبة لتقييم الأمور، فالنفق يبدو مظلمًا في كلتا الحالتين، ولكن على الأرجح هناك فرصة واحدة ما، سواء لي أو لبلدي.

وكأن كتيب سكودر الصغير يقرر عني الآن، إذ كانت كاللحظة الأكثر روعًا في حياتي، فلم أكن جيدًا في اتخاذ تلك القرارات التي تحتاج لدم بارد. ومع ذلك، تمكنت من لملمة ما تبقى من شجاعتي لضبط نفسي وخنق تلك الشكوك المزعجة التي غمرتني، فأجبرت عقلي على الصمت ببساطة وتظاهرت كأنني أقوم بتجربة في ليلة جاي فوكس([7]) - تحصلت على فتيل التفجير والذي ثبته على بعد قدمين، ثم أخذت قرابة ربع كتلة البنتونايت تلك ودفنتها قرب الباب داخل شق في الأرض أسفل أحد الأكياس، مثبتًا المفجر بها كذلك، وحسب ما استطعت تمييزه فإن نصف هذه الصناديق قد تكون حاوية للديناميت، فإذا كانت الخزانة تحمل مثل هذه المتفجرات القاتلة فلم لا تقم الصناديق بنفس الأمر؟ وفي تلك الحالة، سيكون في انتظاري أنا وهؤلاء الخدم الألمان وفدان من البلدة المحيطة، سيكون في انتظارنا رحلة بلا رجعة إلى العالم الآخر.

كما كانت هناك مخاطرة أيضًا بأن هذا الانفجار قد يمتد لبقية العبوات اللبنة في الخزانة، نظرًا لأنني تناسيت العديد عن مادة البنتونايت تلك، لم أستطع التوقف عن التفكير في الاحتمالات، فالنتائج المنتظر حدوثها كارثية لكن كان علي تقبلها.

تكورت أسفل النافذة، أشعلت الفتيل، ثم انتظرت لحظة أو اثنتين، إذ ساد المكان صمت رهيب يتخلله فقط صوت جرجرة أرجلهم في الممر، وقرقرة الدجاجات الهادئة القادمة من الخارج، استودعت روحي لخالقها، متسائلًا: أين قد أكون في غضون خمس ثوان؟!

شرعت موجة كبيرة من الحرارة تنبثق من الأرضية لتعلق في الهواء، ثم أومض الجدار المقابل لي بنور أصفر كالذهب صاحبه دوي شديد ضرب دماغي حتى النخاع، فسقط شيء عليّ، لامس كتفي الأيسر، حتى فقدت الوعي حسبما أعتقد..

لم يستمر شعوري المؤقت بالشلل الذي سرى بداخلي الذي سار بي لثوان قليلة، إلا وشعرت أنني أكاد أختنق من تلك الأبخرة الصفراء بينما تصارع قدماي الحطام أسفل منها، وفي مكان ما ورائي شعرت بهواء منعش، إذ سقطت عضادات النافذة، فتدفق الدخان خارجًا خلال ذلك الصدع، تقدمت إلى العتبة المحطمة، لأجد نفسي واقفًا في فناء من الضباب الكثيف، ينتابني شعور بالإعياء والمرض الشديد لكنني أتمكن من تحريك أطرافي، فسرت مترنحًا هكذا مبتعدًا عن المنزل على نحو أعمى تمامًا، إلى أن سقطت في مجرى مائي لطاحونة خشبية على الجانب الآخر من الفناء، فانتعش جسدي جراء برودة المياه، في نفس الوقت الذي كنت أفكر بطرق مختلفة للفرار.

حاولت إيجاد طريق للصعود فيما بين الوحل الأخضر الزلق إلى أن وصلت إلى عجلة الطاحونة، تعثرت مرارًا حتى بلغت محورها، علقت في كومة من النفايات إذ اشتبك مسمار بسروالي خلالها، ومن ثم نجحت في الخلاص منها، كانت تلك الطاحونة قد توقفت عن العمل منذ فترة حيث بليت معظم أجزائها جراء الزمن، كما نخرت الجرذان فجوات كبيرة في الجانب السفلي منها، كنت أشعر بالغثيان وكأن هناك ما يدور داخل رأسي إضافة إلى شلل جزئي كان قد أصاب كتفي وذراعي الأيسر، ألقيت نظرة على النافذة من خلفي ليترائى لي ستار الضباب قائمًا، بينما يفر الدخان من العلية.

إلهي! فقد أوقدت النيران في المكان بأكمله، إذ كان باستطاعتي سماع صيحات مضطربة قادمة من الجانب الآخر، لكنني لا أملك وقتًا للتباطؤ، كما أن تلك المطحنة كانت مخبئًا سيئًا، فأي شخص سيسعى ورائي فسوف يتتبع مجراها بطبيعة الأمر، وكنت متيقنًا أن البحث سيبدأ حالما يكتشفون أن جسدي ليس في المخزن. ومن ناحية أخرى، كنت قد رأيت برج حمام قديمًا من الحجر يستقيم على الجانب الأقصى من المطحنة، تمكنت من الوصول إلى هناك دون ترك أي أثر، إذ كان علي أن أجد مكانًا للاختباء، فسوف يفترض أولئك أنني قادر على التحرك، لذا سيخيل إليهم أنني انطلقت في العراء، وسيسير البحث عني في تلك الناحية.

زحفت أسفل الدرجات المكسورة تلك، بينما أجرف الأرض بقدمي لإخفاء آثارها، كما فعلت الشيء نفسه عند الطاحونة، لأتوقف عند عتبة باب ذي مفصلات مهدمة، اختلست النظر، لأرى أنه بيني وبين ذاك البرج بقعة خالية غير مستوية، إذ لن تظهر فيها أية آثار لأقدام، كما أنها مخفاة بفعل الطواحين التي تحجب رؤيتها تمامًا عن المنزل، انطلقت قاطعًا تلك المسافة، إلى أن بلغت الجزء الخلفي له وتكشفت طريقًا لتسلقه، كانت تلك واحدة من أصعب المهام التي قمت بها في حياتي، إذ آلمني كتفي وذراعي ألمًا منفرًا، وكنت أشعر بإعياء يصاحبه دوار شديد فكنت أوشك على السقوط مرارًا، لكنني تدبرت أمري بكل الأحوال.

فبفضل النتوءات والتشققات الموجودة في البناء، إضافة إلى جذور اللبلاب([8]) المتينة استطعت بلوغ القمة في نهاية الأمر. كان هناك متراس صغير في الخلف والذي تراءى لي مكان مناسب كي أستلقي، ثم انتابتني إغماءة قليلة استيقظت منها برأس يكاد يحترق بينما تتعامد أشعة الشمس على وجهي، استلقيت فترة طويلة هكذا بلا حراك، وكأن تلك الأبخرة المريعة قد أرخت مفاصلي وأذهبت عقلي، ومن ثم تسللت إليّ صيحات أولئك الرجال من المنزل وهم يبحثون عني، وتابع ذلك ضجيج سيارة على وشك التحرك، كانت هناك فجوة صغيرة في المتراس أخرجت رأسي خلالها لأبلغ نظرة عامة على الفناء بأكمله، رأيتهم يتحركون مع خادم مطوقة رأسه بالقماش، وشاب ينتعل بنطالا يصل إلى ركبتيه، كانوا يبحثون عن شيء ما متجهين نحو الطاحونة، إلى أن لاحظ أحدهم قطعة القماش التي مزقت بفعل المسمار، وصاح إلى الآخر.

عاد كلاهما إلى المنزل، وجلبا اثنين آخرين لرؤية الأمر، لاحظت كيف أن الجميع كان مسلحًا، وباتوا يفتشون الطاحونة بدقة لقرابة نصف الساعة، استطعت سماعهم بينما يركلون البراميل الصغيرة ويسحبون ألواح الخشب البالية، ثم تأهبوا للخروج وشرعوا يتجادلون بحدة أسفل البرج مباشرة، كان الخادم ذو العصابة هذا يسلك منحًى جيدًا، إذ سمعتهم يعبثون بالبوابة فعشت لحظة مروعة خيل فيها إليّ أنهم سيصعدون، ثم فكروا على نحو أفضل وعادوا أدراجهم إلى المنزل، ومكثت أنا مستلقيًا طوال النهار على سطح البناية، حيث شكل الظمأ عذابي الأول، فكان لساني كالعصا، وما زاد الأمر سوءًا كان صوت قطرات الماء البارد تتساقط تباعًا.

ظللت أراقب سيران مجرى النهر الصغير قادمًا من المستنقع، فيتبعه خيالي إلى قمة الوادي، إذ يخرج من ينبوع جليدي مهدبًا بنبات السرخس ومكسوا بالطحالب، وكنت لأدفع الآلاف قبالة غمس وجهي في ذلك، كنت أمتلك رؤية جيدة للمشهد من أعلى، وهنا شاهدت سيارة مسرعة تنطلق باثنين من الرجال، بينما يمتطي رجل آخر مهره ويتجه شرقًا ناحية التل.

استنتجت أنهم خرجوا للبحث عني متمنيًا لهم السعادة في رحلة التنقيب هذه، لكنني رأيت شيئًا آخر أكثر إثارة للاهتمام. إذ كان البيت تقريبًا على قمة جبلية مكللة بالخضرة لتبدو كنوع من الهضاب، ولم تكن هناك نقطة أعلى منها سوى التلال الكبيرة التي تبعد ستة أميال، كانت قمة حقيقية، كما ذكرت، ذات مجموعة كبيرة نسبيًّا من الأشجار أغلبها من خشب التنوب مع القليل من شجر الدردار([9]) والزان أيضًا.

وفي برج الحمام ذلك فقد كنت على ارتفاع مساو لقمم الأشجار، فمكنني من رؤية ما هو أبعد من ذلك.

إذ كانت تلك البقعة من الأرض تبدو كحلقة وبداخلها مضمار أخضر بيضاوي الشكل، وكأنها أقرب إلى ساحة كريكت كبيرة، لم أستغرق وقتًا طويلًا لأخمن ماهيتها، إذ كانت مطارًا، مهبطًا سريًّا، فقد تم انتقاء ذلك الموقع بعناية حتى تبدو أي طائرة تهبط فيه وكأنها عبرت التل هكذا خلف الأشجار.

نظرًا لأن المكان كان على قمة مرتفعة وسط مدرج كبير، فإن مراقبًا من أي اتجاه سيستنتج أنه قد مر من وراء التل فحسب، وحده الشخص القريب جدًّا سيدرك أن الطائرة لم تعبر طريقها وإنما هبطت في مكان ما وسط الأشجار، ربما يكتشف أحدهم تلك الحقيقة حالة امتلاكه تلسكوبًا على أعلى قمة وسط هذه التلال، ولكن الرعاة فقط هم من يقطنون هنا، الرعاة الذين لا يحملون نظارات معظمة

حتى، وبينما كنت أراقب من أعلى البرج تراءى لي خط أزرق أدركت كونه البحر، واستشطت غضبًا حين شرعت أفكر كيف أن أولئك الخصوم يمتلكون كل هذا، ومن ثم أدركت أنه إذا عادت تلك الطائرة فإن نسبة العثور عليّ ستتضاءل كثيرًا لصالحهم.

لذا استلقيت أتضرع طوال الظهيرة من أجل حلول الظلام، ولَكَمْ كنت سعيدًا حينما غربت الشمس خلف التلال الكبيرة وانسدلت غيوم حمرتها فوق البقاع الخضراء، جاءت الطائرة في وقت متأخر، إذ توارى الغسق تمامًا حينما سمعت صوت الأجنحة وشاهدتها تهبط نزولًا وسط الأشجار، أومضت الأنوار قليلًا، وكان أغلبها قادمًا من المنزل إلى أن ساد الظلام، حمدًا للرب، فقد كانت ليلة مشئومة، كان القمر هلالًا في ربعه الأخير، ولم يدم سطوعه لوقت طويل، كان شعوري بالظمأ أكبر من أن يسمح لي بالتواني أو البقاء، لذلك وفي قرابة الساعة التاسعة، شرعت في النزول بقدر ما استطعت، لم يكن الأمر سهلًا، وفي منتصف الطريق سمعت الباب الخلفي للمنزل وهو يفتح بينما أشهد وميضًا ينعكس على جدار الطاحونة.

ولبضع دقائق مؤلمة اضطررت إلى التعلق بفروع اللبلاب أصلي داعيًا بألا يأتي كائن من كان ناحية البرج في تلك اللحظة، ثم اختفى الضوء، وسقطت بروية قدر ما حاولت على تربة الفناء الصلبة، ومن ثم قمت بالزحف مستترًا في ظل الحاجز الحجري حتى بلغت مجموعة الأشجار التي تحيط بالمنزل، لو أنني كنت أعرف كيفية القيام بالأمر لحاولت إخراج تلك الطائرة لكنني أدركت أن أي محاولة من شأنها أن تبوء بالفشل، إذ كنت متيقنًا أنه سيكون هناك نوع من الحماية الجمة حول المنزل، لذلك فسلكت طريقي علي يدي وركبتي، أتحسس كل بوصة أمامي ببطء حريص.. وهو ما كان ضروريًا، إذ خطوت على سلك يبلغ طوله حوالي قدمين في الأرض كان من شأنه أن يدق أحد الأجراس داخل المنزل إذا ما تعثرت به، وحينها كان ليتم الإمساك بي دون أدنى شك، وعلى بعد مائة ياردة وجدت سلكًا آخر موضوعًا بحذر على حافة مجرى صغير، وفي غضون خمس دقائق من الزحف كنت قد بلغت كومة نباتات السرخس والخلنج.

وسرعان ما وجدت نفسي على هامش مرتفع في الوادي الذي تتدفق منه مياه الطاحونة، وبعد عشر دقائق كان وجهي متوردًا جراء لترات المياه المباركة التي أصابته بالبلل، لكنني لم أتوقف إلى أن قطعت عشرات الأميال الأخرى كي تبعد بيني وبين ذلك المنزل الملعون.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل السابع

الصياد ذو الطعم الصناعي

جلست على قمة تل أقيم موقفي، لم أكن أشعر بسعادة غامرة، إذ كان يطغي على شعوري بالامتنان حول فراري ألم جسدي عسير، فقد سممتني أدخنة اللنتونايت تلك تمامًا، كما أن بقائي محمصًا هكذا لساعات في البرج لم يساعد بدوره، كنت أشعر بصداع شديد، مريضًا كقطة، إضافة إلى كتفي الذي بدا في حالة يرثى لها، اعتقدت في بداية الأمر أنها ليست سوى كدمة، ولكنه كان متورمًا بقدر لم أستطع به تحريك ذراعي الأيسر، كنت أخطط للوصول لكوخ سيد تورنبول، أستعيد كسوتي، لاسيما مفكرة «سكودر»، ومن ثم أعاود أدراجي جنوبًا، إذ بدا لي أنه كلما أسرعت في التواصل مع سيد. والتر بولفانت رجل وزارة الخارجية هذا، كان أفضل، فلم يكن يخيل إلي أنني قد أتحصل على أدلة أكثر مما تحصلت عليه بالفعل. عليه فقط إما أن يقبل بقصتي أو يرفضها.

وعلى أية حال سأكون معه في مأمن مقارنة بهؤلاء الألمتان الملاعين إذ كان قد بدأ شعور طيب ينمو لدي تجاه الشرطة البريطانية، كانت ليلة رائعة مليئة بالنجوم، ولم تواجهني صعوبة كبيرة في الطريق، فقد منحتني خريطة السيد هاري رؤية جيدة لتلك الأرض، وكل ما كان علي فعله هو أن أدير وجهتي نقطة أو اثنتين غربًا لبلوغ مجرى النهر حيثما التقيت بمرمم الطريق، رغم ترحالي هكذا لم أكن أعلم أسماء الأماكن، لكنني كنت قانعًا بأن هذا المجرى لم يكن على ارتفاع أدنى من نهر «تويد»، فوفقًا لما حسبته يجب أن أكون على بعد ثمانية عشر ميلًا منه، وهذا يعني أنني لن أتمكن من الوصول إلى هناك قبل الصباح، لذلك يجب علي أن أحظى ببعض الراحة يومًا في مكان ما، إذ كان ليبدو أمرًا مخزيًا ليراني أحدهم في ضوء الشمس.

لم يكن لدي أي معطف، صدرية، طوق أو قبعة، كما كان سروالي ممزقًا بشدة، وكان وجهي ويداي متشحة السواد جراء ما سببته الفرقعات، لم يعد بمظهري شيء يذكر، إذ شعرت عيناي أيضًا كونها تكاد تحتقن بالدماء، فلم أكن مشهدًا قد يرغب المواطنون في رؤيته على الطريق العام بكل ما تحمله الكلمة من معنى، بعد وقت قصير من بزوغ الفجر حاولت تنظيف نفسي في غدير قادم من التل، ومن ثم دنوت من كوخ راع لشعوري الشديد بالحاجة إلى الطعام، كان الراعي بعيدًا عن المنزل، زوجته بمفردها، ولم يكن هناك من يجاورهم على مسافة خمسة أميال، كانت سيدة مسنة ذات هيئة محتشمة، رغم ذلك فقد انتابها الرعب فور رؤيتي، كان لديها فأس في المتناول، وجاهزة لاستخدامه على أي ممن قد يحملون نية سيئة.

أخبرتها أنني قد تعرضت لسقوط ولم أذكر كيف، إذ تراءى لها كوني مريضًا جدًّا فلم توجه إليّ أية أسئلة، فقد أعطتني وعاء من الحليب داخله مقدار ضئيل من الويسكي، وسمحت لي بالجلوس قليلًا أمام موقد مطبخها، كان بإمكانها أن تحمم كتفي هذا إلا أنه آلمني بشدة لدرجة أنني لم أدعها تلمسه، لا أعرف لما ظنت في كوني لصًّا تائبًا، فحينما أردت أن أدفع لها مقابل الحليب وقدمت لي سفرنا إنجليزيًّا كأقل عملة أمتلكها، هزت رأسها وقالت:

«أعطها لمن لهم الحق فيها».

فاحتججت بقوة لدرجة جعلتها تصدق أنني أمين، لأنها أخذت المال وأعطتني وشاحًا دافئًا من بعده، وقبعة قديمة تعود لزوجها، ومن ثم أرشدتني كيف أحكم العصبة حول كتفي، وعندما غادرت هذا المنزل الريفي كنت أعكس صورة مثالية لمواطن اسكتلندي قد يتسنى لك رؤيته في صور مرفقة بقصائد شعرية لروبرت بيرنز(10) ولكني ربما كنت أرتدي على نحو بسيط أو مبالغ فيه فلا أعلم، فبالنسبة للطقس الذي تغيرت أحواله جراء سقوط المطر قبل منتصف النهار التجأت لأسفل صخرة بارزة من انحناءة النهر كملاذ منه، حيث شكلت كومات السرخس الميتة فراشًا مقبولًا إلى حد ما.

تمكنت من النوم حتى حل الليل، لأستيقظ هزيلًا أشعر بالضيق الشديد، يوخزني كتفي كألم في الأسنان، تناولت كعكة الشوفان والجبن اللتين منحتني إياهما تلك الزوجة المسنة، وشرعت أتحرك قبيل العتمة، عايشت معاناتي في تلك الليلة بين التلال الرطبة، حتى أنه لم يكن هناك نجوم كي ترشدك لسبيل ما، وكان علي أن أفعل ما بوسعي وفقًا لما أذكره من الخريطة، ضيعت الطريق مرتين، كما اختبرت سقطات مؤذية جراء المستنقعات المحاطة بالنباتات، كان علي أن أسلك عشرة أميال فقط، بينما ما عاهدته جعلها تبدو ضعف ذلك، إذ تملك الدوار من رأسي، ولكني تدبرت الأمر، وفي مطلع الفجر كنت أطرق باب السيد تيرنبول.

كان الضباب منبسطًا على نحو قريب، ولم يتسنى لي رؤية الطريق العام من المنزل، فتح سيد ترنبول الباب بنفسه بينما كان يبدو وقورًا أو ربما أكثر مما تحمله الكلمة من معنى، كان يرتدي زيًّا قديمًا لكنها بذلة سوداء منمقة، وشاحذًا ذقنه إذ لم تبدُ كما بدت كسابق عهدها، يطوق رقبته وشاح من الكتان، وفي يده اليسرى يحمل الكتاب المقدس في حجم الجيب منه.

لم يتعرف عليّ في بادئ الأمر، وتساءل قائلًا:

«من قد يأتي الآن؟ هكذا في صباح السبت؟».

كنت قد فقدت حساب الأيام، لذلك كوننا في يوم السبت هو السبب وراء لياقته الغريبة تلك، كان رأسي يدور بشدة لدرجة أنني لم أتمكن من استجماع رد مناسب، لكنه تعرف علي، وتراءى له كوني مريضًا، وسألني:

«هل لازالت العوينات بحوذتك؟

فأخرجتها من جيب سروالي وقدمتها إليه.

فقال:

«سأحضر لك سترتك وصدارك، فقط تعالى إلى هنا أيها الرجل، تبدو قدماك في حالة مزرية، تماسك حتى نبلغ المقعد».

كنت قد وعيت تمامًا إصابتي بالملاريا، إذ كانت عظامي محمومة بفعل رطوبة تلك الليلة، في حين أن آلام كتفي وتأثير الأدخنة مجتمعة جعلاني أشعر شعورًا سيئًا للغاية، ساعدني السيد تورنبول في التجرد من ملابسي واضعًا إياي في الفراش، كان ذلك الرجل بمثابة صديق حقيقي وقتما احتجت له.

توفيت زوجته منذ سنوات، ومنذ زواج ابنته وهو يعيش بمفرده، وكان أفضل ما منحني إياه خلال عشرة أيام هو الرعاية الشاقة التي كنت بحاجة إليها، كنت أرغب فقط في الاستلقاء بسلام إلى أن تجد الحمى سبيلها بعيدًا عني، وعندما عادت البرودة لجسدي مرة أخرى تراءى لي أن كتفي في طريقه إلى الشفاء، لكنها كانت تجربة عصيبة ورغم أنني استطعت النهوض من الفراش لخمسة أيام، إلا أن قدميّ استغرقت وقتًا للعودة لطبيعتها، كان تورنبول يخرج كل صباح تاركًا لي حليبًا يكفي اليوم بأكمله، ومن ثم يحكم إغلاق الباب من خلفه ويعود أدراجه في المساء كي يجلس وحيدًا عند زاوية المدخنة.

في المكان الذي لا يقرب منه كائن كان، وعندما شرعت في التحسن لم يزعجني أبدًا بأية سؤال، كان قد أحضر لي جريدة «سكوتسمان» منذ يومين مضيا، ولاحظت كيف أن الاهتمام بقضية بورتلاند كان قد تلاشى، إذ لم يكن هناك أي ذكر لها، ولم أجد إلا القليل عن كل شيء باستثناء ما يسمى «الجمعية العامة» أو «النشاط الكنسي» حسب ما استنبطت، وذات يوم وبينما يتفحص سروالي كان يتعجب:

«لابد من أنها كانت قفزة مروعة من تلك التلة» دون أي يحاول التوصل لاسمي حتى..

سألته إذا ما كان هناك أحد ما قد حاول الاستفسار متقفيًا أثري على الطريق، فأجابني:

«أجل، كان هناك رجل في سيارته، تساءل عمن حل محلي ذلك اليوم، حاولت صرفه بعيدًا، لكنه ظل يلح علي، بدا كأجنبي، وكان يدفعني إلى الغضب بشكل كبير كوني لم أفهم نصف حديثه بالإنجليزية تلك».

كنت أشعر بالقلق في أيامي الأخيرة للتعافي، وبمجرد أن أصبحت قادرًا اتخذت قرارًا بالرحيل، إذ لم نكد في بداية اليوم الثاني عشر من شهر يونيو إلا وحالفني الحظ بمرور سائق نقل في الصباح مكلفا بحمل بعض المواشي إلى «موفات».

كان ذلك الرجل يدعى «هيسلوب»، وهو صديق لـ«ترنبول»، قد تناول فطوره معنا وعرض أن يأخذني معه، فأجبرت ترنبول على قبول خمسة جنيهات مقابل إقامتي عنده، وهو الأمر الذي لم يكن سهلًا أبدًا، إذ لم أرَ في حياتي كائنًا حرًّا هكذا مثله، فقد تعنف على نحو إيجابي عندما ضغطت عليه حتى أن وجهه قد اكتسب حمرة من الخجل، إلى أن اضطر لأخذ المال في نهاية الأمر دون كلمة شكر، وعندما حاولت إخباره لكم أنا مدين له، تمتم بكلمات فظة ترفض هذا النوع من الحديث، حيث كان يمكنكم استنتاج أننا شركاء في كل شيء من الطريقة الوداعية التي غادرت بها، كان «هيسلوب» رجلًا ذا روح مبهجة، والذي ظل يتجاذب معي أطراف الحديث لدى مرورنا من هذا الوادي المشمس، تحدثت إليه عن أسواق جالاواي وأسعار الماشية بها حتى بات في ذهنه اعتقاد بكوني راعي غنم وتاجرًا بالجملة في تلك البقاع أيًّا كانت تكمن.

كانت هيئتي وقبعتي القديمة تلك تعطي انطباعًا بكوني رجلًا اسكتلنديًّا متكلفًا كما في القصص كما قلت، لكن رعاية المواشي كان ليبدو عملًا مملًّا على نحو قاتل بالنسبة لي، كنا قد قطعنا الجزء الأفضل من اليوم في حوالي عشرة أميال، ولولا أنني أملك قلبًا مرتابًا لتمتعت بالأمر كثيرًا، إذ كان

الطقس زاهيًا بسماء ضاربة إلى الزرقة مع وجود تلك التلال البنية والمروج الخضراء البعيدة، إضافة لتتابع أصوات الكروانات وغدير المياه الجارية، لكني لم ألق بالًا لتلك الأجواء الصيفية، قليلًا منه فقط كان يتابع حديث هيسلوب، فكلما اقترب يوم الخامس عشر من يونيو المصيري هذا كانت تتثاقل أمامي العقبات بلا أمل لحلها، تناولت طعام الغداء في نزل عام متواضع بمنطقة «موفات»، ومن ثم سرت قرابة ميلين تجاه نقطة تقاطع على الطريق الرئيسي.

لم يكن القطار المتجه إلى الجنوب متاحًا إلا في منتصف الليل، ولملء الوقت لحين ذلك تسلقت إلى سفح التل، إذ غفوت جراء الإرهاق الذي انتابني من السير، استغرقت في النوم لفترة طويلة جدًّا، حتى اضطررت إلى أن أهرع إلى المحطة كي ألحق بالقطار الذي سيغادر في غضون دقيقتين، ذلك الشعور فيما بين وسائد الدرجة الثالثة ورائحة التبغ البالي أبهجتني على نحو رائع، إذ شعرت بأنني أتحكم في زمام الأمور مجددًا، ترجلت بعد ساعات قليلة في «كرو» وتعين علي الانتظار حتى السادسة كي أبلغ قطارًا متجهًا نحو «بريمنجهام».

وبحلول الظهيرة كنت قد وصلت إلى «ريدينج»، وترجلت لقطار محلي آخر ارتحل بي في أعماق «بيركشاير»، حيث كنت محاطًا بأرض من المروج المائية الخصبة وتياراتها الهادئة، وقرابة الساعة الثامنة مساء كنت ذلك المسافر المنهك عابس الوجه الذي يبدو كطبيب بيطري أو عامل في الشئون الطبية بمزرعة ما مرتديًا تلك الثياب ذات البقعة المنقوشة عند الذراع، والتي لم أكن أجرؤ في الجنوب، إلى أن ترجلت في محطة صغيرة في «أرتينز».

كان هناك العديد من الناس على رصيف المحطة، واعتقدت أنه كان من الأفضل أن أنتظر دون أن أسأل عن الطريق إلى أن أتأكد من وجهتي، كان الطريق يقودني نحو مجموعة من أشجار الزان الشاهقة ومن ثم إلى واد ضحل، تطل نهايته على أشجار أخرى تظهر عن بعد، من بعد اسكتلندا كان الطقس هادئًا باعثًا على النعاس، ولكنه رائع دون أدنى شك، جراء شجر الليمون والزهور الكستنائية الأرجوانية التي تزينها. إلى أن بلغت جسرًا كان يتدفق أسفله تيار مائي بطيء بقيعان مليئة بالعشب المكسو بالثلج، بينما يعلوه بمسافة قليلة طاحونة ينتج عن حركتها صوت لطيف محبب في أثناء الغسق ذي الرائحة العطرة.

وبطريقة ما قد نجح المكان في تخفيف الألم عني وإعادتي إلى طبيعتي المرتاحة، حتى أنني شرعت في الصفير أثناء مراقبتي لتلك الأفق الخضراء، فكان اللحن الأول الذي بلغته شفاهي هو أغنية «آني لوري»([11]) فخرج عليّ صياد من جانب المياه يردد النغم بدوره أثناء اقترابه مني، فأصبح اللحن يسيرًا بسلاسة كونه قد حذا حذوي، كان رجلًا ذا جسد ضخم مرتديًا ملابس تحتية وقبعة ذات حواف واسعة، وحقيبة قماشية معلقة على أحد كتفيه، أومأ برأسه محييًا ليتراءي لي وجه حصيف لم أر مثله من قبل، ومن ثم أحنى قدميه بروية لتلامس المياه ونظر لي على نحو لطيف قائلًا:

«صافية شفافة، أليست كذلك؟

أفدي مدينة «كينر»([12]) بكل ما أملك ضد أي شيء، انظر إلى ذلك الرجل هناك، أراهنك بأربعة جنيهات إن لم يكن متعديًا، لكن المساء قد أوشك على الانتهاء ولا يمكنني تفحصه الآن».

فقلت له:

«لا أتمكن من رؤيته».

فرد:

«انظر! هناك على بعد ياردة من تلك الأخشاب».

أجبته:

«أجل رأيته الآن، من المؤكد أنه رجل ذو مكانة على ما يبدو».

ومن ثم سألني بينما يدندن مقطع آخر من أغنية لوري ويراقب تيار المياه:

«إذًا، اسمك تويسدون، أليس كذلك؟».

فقلت متناسيًا كل أسمائي المستعارة تلك:

«لأ، أقصد نعم».

فتفحصني قائلًا:

«حكيم وواع من يعرف اسمه جيدًا».

وبينما تتعالى وجهى ابتسامة عريضة جراء رؤيتي لدجاجة ظهرت لنا من مرعى تجاه الجسر، توقفت ونظرت إليه، إلى تشققات شفاهه، عرض جبينه، وتصلب ثنيات وجنتيه، وطرأ علي كونه نصيرًا يستحق الظفر بصحبته في النهاية، إذ كانت عيناه الغريبة الزرقاء تلك أعمق مما تبدو.

فعبس وجهه فجأة ورفع صوته قائلًا:

«يا له من أمر مخز».. «فمن المشين أن يتعين على رجل قادر مثلك التوسل لطلب شيء ما، يمكنك تناول وجبة في مطبخي، ولكنك لن تتحصل على أي نقود مني».

وهنا مرت عربة صغيرة تجرها الكلاب ويقودها شاب يحمل سوطًا في يده، بينما رفع الأخرى محييًا الصياد، وعندما غادر حمل ذلك الرجل صنارته، وأشار إليّ تجاه بوابة بيضاء على بعد مائة ميل قائلًا:

«هذا هو منزلي».

أمرني بقوله:

«انتظر خمس دقائق ثم اذهب إلى الباب الخلفي».

وغادرني هكذا، ففعلت ما أمرت به، تراءى لي كوخ جميل مع عشب يسلك مساره تجاه مجرى النهر، وغابة كثيفة مثالية من الزهور البيضاء الكريمية ونباتات الليلك الأرجوانية تحاوط الطريق، كان الباب الخلفي مفتوحًا، وكبير الخدم في انتظاري قائلًا:

«اسلك تلك الطريق يا سيدي» إذ قادني على طول ممر، ومن ثم صعودًا بدرج خلفي إلى غرفة نوم لطيفة تطل على النهر، لأجد هناك مجموعة كاملة من الملابس موضوعة بعناية من أجلي بكل مرفقاتها، من ملابس تحتية داكنة، قمصان، أوشحة، أربطة عنق، أدوات حلاقة، فرشاة شعر، وحتى زوج نظيف من الأحذية.

وأخبرني ذاك الرجل:

«تراءى للسيد والتر أن تلك أشياء السيد ريجي ستناسبك يا سيدي، إذ يحتفظ ببعض الملابس نظرًا لقدومه المعتاد نهاية كل أسبوع، هناك حمام مجاور لك، فقد أعددت لك حوض الاستحمام، وسيصبح العشاء جاهزًا في غضون ساعة من الآن ستستمع لجرس الدعوة إليه».

وبينما ينصرف ذلك الخادم الجليل، جلست متثائبًا في مقعد مبطن باعث على الراحة، كنت أبدو كممثل صامت ينتابه الذهول جراء تلك الراحة التي حظي بها، من الواضح أن السير والتر قد آمن بي، على الرغم من أنني لم أميز سبب ذلك.

نظرت في المرآة لأرى رجلًا منهكًا شاحب الوجه، ذو لحية تحتاج تهذيبًا، وغبار يلطخ كل من أذنيّ وعينيّ، رقبة عارية، ملابس رثة قديمة بينما ينتعل حذاء لم ينظف قرابة الشهر، كان الأمر ليبدو منصفًا إن كنت مشردًا أو مجرد سائق نقل، وها أنا قد أرشدت من قبل رئيس خدم منمق مثله داخل محفل الراحة والكرم هذا، وأفضل ما في الأمر أنهم لم يكونوا على علم باسمي، عزمت على إراحة رأسي من الحيرة، وأن أقبل بعطيات الرب التي يمنحني إياها، إذ شحذت لحيتي وتحممت على نحو مترف، اكتسيت بقميص نظيف من الملابس والذي ناسبني على نحو جيد بما يكفي.

وبمرور وقت قصير كنت قد انتهيت من ذلك لأكتسب مظهر شاب ذي شخصية منفتحة، بينما كان السيد والتر يترقبني في غرفة طعام معتمة بعض الشيء تحوي مائدة صغيرة ذات شكل دائري مضاءة بشموع في حاملاتها الفضية، كان حضوره مهيبًا مطمئنًا في آن واحد، حتى شعرت أنني دخيل متطفل، إذ لم يستطع هذا الرجل معرفة الحقيقة عني، لأنه لو كان يعلم لم يكن ليعاملني على هذا النحو، فلم أتمكن بدوري من مقابلة حسن ضيافته تلك بادعاءات كاذبة، لذا حادثته قائلًا:

«لا يسعني القول لَكَمْ أنا ممتن لما تفعله معي، لكني ملزم بإيضاح الأمور، أنا رجل بريء، لكنني مطلوب من قبل الشرطة، أخبرك هذا ولن أتفاجئ أبدًا إن طردتني خارجًا».

فابتسم وأجابني:

«لا بأس، لا تجعل تلك الأمور تفقدك شهيتك، يمكننا أن نتحدث عن ذلك بعد العشاء».

وشرعت أتناول الطعام بتلذذ بالغ نظرًا لأنني لم أحصل على مثله طوال اليوم، لا شيء سوى ساندويتشات من محطة السكة الحديدية، عاملني السيد والتر جيدًا حيث احتسينا الشامبانيا ونوعًا غير شائع من الخمر الخاص بعد ذلك، ولكن فكرة جلوسي هكذا كانت تقودني إلى الجنون، حيث أجلس بينما ينتظرني خادم ومدبر منزل حتى أنتهي، أذكر أنني عايشت ثلاثة أسابيع أتلصص كقاطع طرق يطارده الجميع، وها أنا أخبر السيد والتر عن نوع الأسماك ذوات عين النمر في «زامبيسي» والتي

قد تقضم أصابعك إن سنحت لها الفرصة، كما تجاذبنا أطراف الحديث عن الرياضة في كل أنحاء العالم.

ومن ثم انتقلنا إلى مكتبه لاحتساء القهوة، وهو ما كان حجرة مبهجة مليئة بالكتب، الميداليات، بعض البعثرة هنا وهناك وكثيرًا من الراحة، إذ انتويت حينها أنه حال خلاصي من تلك القضية وحصولي على منزل خاص بي فإنني سأصنع غرفة كهذه.

ومن ثم وعندما نفد فنجانا القهوة تمامًا وأشعلنا السيجار، مدد مضيفي ساقيه الطويلة تلك على جانب مقعده وأمرني بالشروع في تلاوة القصة بقوله: «لقد اتبعت تعليمات السيد هاري، وكانت الرشوة التي قدمها لي هي ما أوقظ في شيئًا، أنا جاهز لسماعك سيد هاناي».

لاحظت كيف دعاني باسمي الحقيقي، لذا فشرعت من البداية أخبره عن السأم الذي كنت أشعر به في لندن، وعن الليلة التي عدت فيها لأجد فيها «سكودر» متلعثمًا على عتبة باب منزلي.

أخبرته كل ما رواه لي «سكودر»، أخبرته عن كاروليديس، وكذلك عن مؤتمر وزارة الخارجية، الأمر الذي جعله يزم شفتيه ويكشر على إثر ذلك، ثم جئت على ذكر جريمة القتل، فاعتدل في جلسته مرة أخرى يستمع إلي أحكي عن بائع الحليب، الفترة التي قضيتها في جالواي، ومحاولتي فك شفرة كتيب «سكودر» في النزل، فسألني بنبرة حادة:

«هل هو بحوزتك هنا؟».

وتنفس الصعداء عندما قمت بإخراج تلك المفكرة من جيبي في استجابة لسؤاله، دون أن أتطرق لما تحتويه تفصيلًا، ثم وصفت له كيف كان لقائي بالسيد هاري، وأمر الخطابات التي ألقيناها في القاعة..

وهنا ضحك بشكل صاخب قائلًا:

«لقد تفوه بالحماقات.. أليس كذلك؟ أنا شبه متيقن من هذا، إنه رجل جيد في المجمل، لكن عمه قد جعل رأسه محشوًا بالترهات، أكمل يا سيد هاناي».

أثار اهتمامه حديثي عن اليوم الذي قضيته كمرمم طرق، حتى أنه جعلني أصف الرجلين اللذين كانا في السيارة على نحو دقيق، وبدا كمن يحاول تذكر شيء، ثم عاد يستمع إليّ بانتباه عندما أثرت سيرة ذلك الأحمق جوبلي.. كذلك الرجل المسن الذي جئت على ذكره أخيرًا، وكان علي أن أقدم له وصفًا تفصيليًّا عنه كذلك: مهندم، ذو رأس أصلع وله عينين كالصقر، إذ كان يبدو كطير جارح..

فعلق قائلًا:

«وأنت اقتحمت عشه بعدما أنقذك من الشرطة، عملًا يتسم بالشجاعة نوعًا ما».

وعندما بلغت نهاية قصة جولاتي بأكملها، نهض ببطء، نظر إلى بساط المدفأة ومن ثم إليّ وقال: «يمكنك أن تخرج أمر الشرطة من رأسك، فأنت لست مهددًا من قبل القانون في هذه البلد».

فصحت:

«عظيم! هل عثروا على القاتل؟».

فأجابني:

«لا، لكن خلال الأسبوعين الماضيين كانوا قد أسقطوك من قائمة المشتبه بهم».

سألته مندهشًا:

لماذا؟

فجاء رده:

«لأنني تلقيت خطابًا من سكودر، فأنا أعرف القليل عن هذا الرجل، فقد خدمني في أمور عدة، إنه صعب المراس لكن عبقري، إضافة لكونه أمينا تمامًا».

كانت مشكلته الوحيدة تكمن في محاباته للعب وحيدًا، مما جعله عديم الفائدة إلى حد كبير في أي خدمة سرية، كان لديه عطيات خاصة، أعتقد أنه كان الرجل الأكثر شجاعة في العالم إذ كان يرتعد من الخوف، ومع ذلك لم يكن هناك أي شيء من شأنه الوقوف في طريقه، تلقيت رسالة منه في يوم ٣١ من مايو..

لكنه كان قد لقي حتفه بحلول ذلك التاريخ، حيث قام بكتابة تلك الرسالة وأودعها عبر البريد من يوم ٢٣، لم يتنبأ بموته المفاجئ بالطبع، واستغرقت محاولته في مراسلتي بالمعلومات أسبوعًا كاملًا، فقد تم إرسالها لأسبانيا سرًّا في بداية الأمر، ومن ثم إلى «نيوكاسل»، كان مهووسًا، كما تعلم، مهووسًا بإخفاء آثاره».

فتمتمت متسائلًا:

«وماذا قال فيها؟».

فأجاب:

«لا شيء، لا شيء سوى أنه في خطر، لكنه عثر على مأوى في كنف صديق جيد، وأنه سيتواصل معي قرابة يوم الخامس عشر من يونيو، لم يكتب إلي أي عنوان، فقط أخبرني أنه يعيش قرب بورتلاند، وأعتقد أن هدفه من ذلك كان محو علاقتك بالقضية إذا ما حدث أي شيء، حينما تسلمت هذه الرسالة ذهبت إلى «سكوتلاند يارد»([13]) وتتبعت تفاصيل التحقيق لأستنبط كونك ذلك الصديق، وعندما تحرينا عنك يا سيد هاناي، واتضح كونك شخصية جديرة بالاحترام، علمت أن دوافعك للاختباء هكذا ليست فقط بسبب الشرطة، بل هؤلاء المعنيين أيضًا، وخمنت بقية الأمور عندما قرأت من هاري، لقد كنت أتوقع قدومك في أي وقت من الأسبوع الماضي».

فلاحقته بقولي:

«لا يمكنك تخيل الحمل الذي أزاله حديثك هذا، أشعر أنني رجل حر مرة أخرى، فمن الآن وصاعدًا سأواجه أعداء بلدي فقط، دون قانونها».

وهنا قال لي السيد والتر:

«هيا الآن دعنا نتفحص ذلك الكتيب الصغير».

استغرق العمل عليه ساعة من جانبنا، ولكنها على نحو إيجابي، إذ شرحت له مسار الشفرة، وقد كانت استجابته للفهم سريعة بشكل رائع، فقد أعاد تصحيح بعض من قراءاتي في عدة نقاط، لكنني كنت على صواب إجمالًا، كان وجهه يحمل شيئًا من الغموض حتى انتهينا، وجلس صامتًا لوهلة».. إلى أن تفوه قائلًا: «أنا لا أعلم ماذا يجب أن أفعل بذلك؟ إنه محق بشأن ما سيحدث بعد غد.. ولكن كيف سنتمكن من معرفة تفاصيله بحق الجحيم؟ هذا أمر مزعج في حد ذاته، أما عن حديث الحرب والبلاك ستون هذا فيبدو وكأنه نوع من أنواع الميلودراما المأساوية، لو أنني فقط أمتلك ثقة أكبر من ذلك في الحكم على «سكودر»! لكن كانت المشكلة في أنه كان عاطفيًّا متوهمًا، كان لديه ذلك الحس المولع بالفن، كما كان لديه انحياز في اتجاه معين، اليهود على سبيل المثال، يثيرون الحنق في عروقه، اليهود وكل من يعيشون حياتهم بترف».

وهنا كرر مصطلح بلاك ستون مجددًا بالألمانية واستكمل:

«إنها تبدو كرواية قصيرة، وكذلك الجزء الخاص بكاروليديس فهو الحلقة الأضعف في تلك الحكاية، فيصادف كوني أعلم أن كاروليديس هذا قدرته تفوق ذلك، فلا توجد أية دولة في أوروبا من شأنها أن ترغب في رحيله هكذا، إلى جانب أنه الآن يتحرك في ملعب برلين وفيينا، كما يمنح رئيسي العديد من اللحظات المضطربة. لا.. لا، فقد انحرف «سكودر» عن المسار هنا، لأكن صريحًا معك يا هاناي، فأنا لا أصدق في ذلك الجانب من روايته، كان هناك بعض الأعمال البذيئة القائمة على قدم وساق، وعندما اكتشف الكثير منها فقد حياته جراء ذلك، لكنني أقسم على أن ذلك عمل جاسوسية طبيعي، سلطة أوروبية كبيرة تمارس هوايتها المفضلة بأنظمتها في التجسس، طرقها هذه ليست بشاذة للغاية، لطالما تسلك طريق المقايضة هذا فإن حراسها لن يتوانوا في ارتكاب جريمة قتل أو اثنتين، يودون معرفة مواقعنا البحرية من أجل المارينيمت - مقر الأسطول الألماني - لكن آمالهم تلك ستخيب دون شك».

دلف كبير الخدم إلى الغرفة في ذلك الحين قائلًا:

«لديك مكالمة خارجية من لندن يا سيد والتر، إنه السيد «إيث» ويود التحدث إليك شخصيا».

فانطلق مضيفي إلى الهاتف، ليعود أدراجه في غضون خمس دقائق بوجه شاحب:

«أعتذر إلى روح سكودر،، كاروليديس قد لقى حتفه جراء رصاصة هذا المساء فيما بعد السابعة بدقائق».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الفصل الثامن

قدوم «البلاك ستون»

نزلت إلى الفطور في صباح اليوم التالي، بعد ثماني ساعات من النوم البائس بلا أحلام، كي أجد السيد والتر يفك شفرة برقية ما وسط الكعك والمربى، فيما تحول الرجل المفعم بالنشاط أمس إلى آخر منشغل الفكر، والذي قال حينها:

«لقد خضت ساعة معقدة على الهاتف بعدما أويت أنت إلى الفراش، تواصلت مع رئيسي كي يتواصل بدوره مع الرجل الأول والأمين المخول باتخاذ قرارات الحرب، قررا تقديم موعد وصول روير (ممثل الجانب الفرنسي)، وحسم الأمر على أنه سيكون في لندن عند الخامسة.

أشار تجاه الأطباق الساخنة، واستكمل:

«اعتقدت أن ذلك سيحقق نتائج جيدة، ولكن إن كان أصدقاؤك أذكياء هكذا بما يكفي لمعرفة الترتيب الأول، فمن المؤكد أنهم أذكياء بما يكفي لاكتشاف البقية أيضًا، أضحي بروحي لأعلم فقط كيف تسرب الأمر إليهم، كنا نعرف أنه كان هناك قرابة خمسة رجال فقط في إنجلترا من هم على علم بقدومه، ومتأكدون من وجود عدد أقل في فرنسا، نظرًا لكونهم يديرون هذه الأمور بشكل أفضل هناك».

استرسل في حديثه هكذا بينما أتناول طعامي، ومندهش من ثقته الكاملة تلك.

فسألته:

«هل يمكن للترتيبات أن تتغير؟».

قال:

«يمكنهم، ولكننا نريد تجنب ذلك قدر الإمكان، فهم نتاج تفكير هائل، وأي تغيير من شأنه أن يسيء الموقف، إلى جانب أنه في مرحلة أو أكثر التغيير يعد أمرًا مستحيلًا. ومع ذلك، لازال يمكننا القيام بشيء ما، على ما أظن، إن كان الأمر ضروريًّا للغاية، لكنك تدرك مدى صعوبة ذلك يا هاناي، فإن أعداءنا لن يكونوا بالحماقة التي تجعلهم يفتشون عن المعلومات في جيوبنا أو أي لعبة صبيانية من هذا القبيل، إنهم يعرفون أن هذا يعني نشوب نزاع من شأنه أن يضعنا على أهبة الاستعداد، هدفهم هو الحصول على التفاصيل دون علم أي واحد منا، لذا سوف يعود «روير» إلى باريس على اعتقاد بأن العمل كله لا يزال سرًّا، وإذا لم يستطيعوا التوصل إليه فإنهم يخفقون، لأنهم بمجرد أن نشكك، فإنهم يعلمون أنه كل شيء سيتبدل».

فقلت له:

«ثم يجب علينا أن نتولى متابعة الرجل الفرنسي حتى يعود لوطنه مرة أخرى».

فأجابني:

«إذا اعتقدوا أن بإمكانهم الحصول على المعلومات في باريس فإنهم سيحاولون ذلك، وهذا سيعني أن لديهم مخططًا قويًّا في لندن، إذ ظنوا أنهم سيحققونه خارجها، هذا الرجل يتناول الغداء مع رئيسي الآن، ومن ثم سيأتي إلى منزلي ليقابله أربعة أشخاص: «ويتاكر» من الأميرالية البريطانية، أنا، السيد «آرثر درو»، والجنرال «وينستانلي»، فالقائد الأعلى مريض، وقد ذهب إلى شيرينغهام، سيحصل في منزلي على وثيقة معينة من ويتاكر، وبعد ذلك سيتم نقله إلى بورتسموث إذ ستأخذه سفينة حربية إلى هافر، رحلته تعد مهمة جدًّا، فلا يمكنه أن يستقل قطارًا عاديًّا، لن يترك أبدًا دون مراقبة لحظية حتى يبلغ الأراضي الفرنسية آمنًا».

.. وستتبع الخطة ذاتها مع ويتاكر حتى يلتقي به، هذا هو أفضل ما يمكننا القيام به، ومن الصعب التكهن حتى بأي إخفاق، لكنني لا أمانع الاعتراف أنني قلق للغاية، فإن مقتل كاروليديس سيلعب دورًا محوريًّا في نزاع القوى الأوروبية».

سألني والتر بعد الإفطار إن كان بإمكاني قيادة سيارة.. ومن ثم قال:

«حسنًا، ستكون سائقي الخاص اليوم، ارتدي ملابس هودسون فأنت في نفس حجمه تقريبًا، لديك علم بهذا العمل، فلا نريد أن نجازف بأي شيء، فنحن نواجه رجالًا متهورين، والذين لن يحترموا إيواء الدولة لكائن من كان».

عندما جئت إلى لندن لأول مرة، كنت قد اشتريت سيارة وحاولت الاستمتاع بالقيادة حول جنوب إنجلترا، لذلك كنت أعرف القليل جغرافيًّا، إذ اصطحبت السيد والتر إلى مدينة من طريق باث وكانت قيادتي جيدة.

كان صباحًا لطيفًا من ذلك الشهر - شهر يونيه - وكأن الشمس قد قطعت وعدًا بالغروب في وقت متأخر، لكنه كان رائعًا بما فيه الكفاية للتجول خلال المدن الصغيرة بشوارعها الرطبة جراء المياه وتجاور الحدائق الصيفية في وادي نهر التايمز، بلغت بالسيد والتر منزله في ممر كوين آن في تمام الساعة الحادية عشرة والنصف، بينما استقل خادمه الشخصي قطارًا مع الأمتعة، وكان أول ما فعله هو اصطحابي في جولة إلى «سكوتلاند يارد»، وهناك استقبلنا رجل مهذب، محام حليق الذقن، والذي تحدث إليه والتر قائلًا:

«لقد جلبت لك القاتل في جريمة بورتلاند».

فجاء رده بابتسامة ظريفة:

«لتكن هدية ترحاب رائعة يا بولفانت، أفترض أن هذا هو السيد ريتشارد هاناي إذًا، الذي أثار اهتمام محيطي بشدة لبضعة أيام».

فقال له:

«سيد هاناي سيثير ذلك مجددًا، إذ لديه الكثير ليطلعك عليه، لكن ليس اليوم، فلأسباب خطيرة ومحتومة على روايته أن تنتظر أربع ساعات. أما بعد ذلك، فيمكنني أن أعدك بأنك ستكون مدعوًّا

لعشاء ممتع للغاية ستتور فيه بصيرتك، أريدك فقط أن تطمئن السيد هاناي بأنه لن يعاني من أي إزعاج مرة أخرى».

وبالفعل جاء تصديقه ذلك على وجه السرعة، وأخبرني هذا بقوله:

«يمكنك أن تستكمل حياتك من حيث توقفت، شقتك التي ربما لم تعد ترغب في المكوث بها، هي في انتظارك، وخادمك لا يزال هناك، نظرًا لأنك لم تتهم علانية أبدًا، فلم نجد حاجة من إعلام الرأي العام لإثبات براءتك، ولهذا عليك أن تبتهج قليلًا».

فاختتم السيد والتر حديثه بينما نغادر:

«قد نحتاج لعونك فيما بعد، ماكجيليفراي».

ثم التفت إليّ:

«تعال لرؤيتي غدًا يا هاناي، لست بحاجة لإخبارك أن عليك البقاء صامتًا بالطبع، لو أنني مكانك لخلدت إلى الفراش، إذ تود اللحاق بما فاتك منه.. كما أنه من الأفضل لك أن تبقى متخفيًا، لأنه إذا رآك أحد أعدائنا من البلاك ستون فقد تنشب مشكلة».

في بداية الأمر شعرت ببهجة كوني رجلاً حرًّا، قادرًا على الذهاب حيثما أريد دون خوف، إذ كنت قد قضيت شهرًا تحت حظر القانون، وكنت قد اكتفيت تمامًا، ذهبت إلى «سافوي» وطلبت بحرص وجبة غداء جيدة جدًّا، ومن ثم قمت بتدخين أفضل أنواع السيجار التي يوفرها النزل، لكني كنت لاأزال شاعرًا بالتوتر، فعندما أمسك بأحدهم ينظر إليّ في الردهة، كنت أجبن، وأتساءل إذا ما كانوا يفكرون في جريمة القتل، استقليت سيارة أجرة بعد ذلك وقطعت أميالًا إلى شمال لندن.

عدت مترجلًا فيما بين الحقول، اصطفاف الفيلات وشرفاتها، ومن ثم الأحياء الفقيرة والشوارع الأدنى في المستوى، استغرق الأمر ما يقرب من ساعتين، كل هذا بينما كان انزعاجي يزداد سوءًا، إذ شعرت أن أحداثًا هائلة كانت تحدث أو على وشك الحدوث، وأنا الآن خارج الأمر برمته بعدما كنت العجلة الرئيسية التي يدور حولها، من المخطط له أن «روير» سيصل إلى «دوفر»، والسيد والتر سيحضر لأعماله السرية مع رجاله القلائل المتواجدين في لندن، وفي مكان ما في الظلام سيعمل البلاك ستون، انتابني شعور بالخطر والكارثة الوشيكة، ولكن كان لدي شعور غريب أيضًا بأنني لوحدي قادر على تفاديه، أنه يمكنني التعامل معه بمفردي، لكني خرجت من اللعبة الآن، كيف لي أن أتوقع خلاف ذلك من الأساس؟

فليس من الطبيعي أن يعترف بي وزراء الحكومة، وقيادات الأدميرالية، والجنرالات في مجالسهم، لكنني شرعت أتمني حقًّا لو أتمكن من مواجهة أحد أعدائي الثلاثة، الأمر الذي من شأنه أن يحرز تقدمًا في القضية، أردت بشدة أن يكون لي مقعد مع هؤلاء النبلاء، حيث يمكنني أن أعمل على تسوية أمر ما، تحول مزاجي سريعًا لأصبح في حالة سيئة للغاية، لم أشعر بالرغبة في العودة إلى شقتي، كنت أحتاج بعض الوقت لمواجهتها مجددًا، وبما أنني كنت أمتلك المال الكافي فكرت في تأجيل ذلك حتى صباح اليوم التالي، وأن أقضي ليلتي تلك في فندق، دام شعوري بالحنق هذا خلال العشاء والذي تناولته في مطعم بشارع جيرماين..

فقدت شهيتي ولم أعد أشعر بالجوع حتى أنني مررت أنواعًا مختلفة دون تذوقها حتى، احتسيت فقط زجاجة بورجاندي والذي لم يستطع إبهاجي، كوني قد استحوذ علي شعور لعين بالضجر، فها أنا هنا رجل عادي جدًّا، بلا أفكار محددة، ومع ذلك وبطريقة ما كنت قانعًا أنهم بحاجة لعوني في تلك المسألة التي من شأنها أن تبوء بالفشل دون تدخلي، استمريت في إخبار روحي أنه مجرد غرور سخيف من ناحيتي، إذ يقبع هناك أربعة أو خمسة من أمهر الرجال، بينما تحميهم قوة الإمبراطورية البريطانية بأكملها، متولون المهمة، ولكني لم أقنع بعد، بدا الأمر وكأن صوتًا ظل يتحدث في أذني آمرًا إياي بالنهوض وفعل شيء وإلا لن أحظي بالنوم مرة أخرى، وكان نتاج هذا أنني عقدت العزم على بلوغ بوابة كوين آني قرابة التاسعة والنصف..

بينما أعلم أنه من المحتمل أنهم لن يسمحوا لي بالانضمام إليهم، ولكن المحاولة من شأنها أن تريح ضميري، سرت على امتداد شارع «جيرماين»، وعند زاوية شارع ديوك مرت مجموعة من الشباب يرتدون ملابس السهرة، ويبدون كمن تناول الطعام في مكان ما ويشرعون في الذهاب إلى قاعة الموسيقى، واحد منهم كان السيد مارمادوك جوبلي، والذي رآني فصاح قائلًا:

«يا إلهي، القاتل! يا رفقاء أمسكوا به، هذا هو هاناي، الرجل الذي ارتكب جريمة القتل في بورتلاند».

أمسك بذراعي، بينما تجمهر الآخرون بدورهم، لم أكن أسعى وراء أية مشكلة لكن شعوري بالغضب جعلني أتحامق، إلى أن جاء رجل شرطة كان يتعين عليّ أن أخبره الحقيقة، وإن لم يصدقني فبإمكانه أن يصطحبني إلى سكوتلاند يارد أو إلى أقرب مركز شرطة.

ولكني لم أستطع تأجيل تلك اللحظة، إذ كان وجه «مارمي» المعتوه هذا أكثر مما أمكنني تحمله، لذا فالتفت بيساري وأوسعته ضربًا حتى شعرت بالرضا وأنا أشاهد ذلك، ومن ثم نشب شجار عشوائي وهاجمني الجميع مرة واحدة، ركلني الشرطي كما تلقيت ضربتين أو أكثر على ما أظن، وإذا كان الأمر يسير على نحو عادل لاستطعت النيل منهم، لكن ذلك الشرطي قد أمسك بي من الخلف بينما أحكم أحدهم قبضته على حلقومي، وفي سحابة الغضب العارم تلك تسلل إليّ صوت الضابط يتساءل:

«ماذا كان الأمر؟».

ليجيبه «مارمي» من بين أسنانه المكسورة تلك مؤكدًا أنني «هاناي» القاتل، فصحت فيه ليصمت:

«اللعنة عليك وعلى كل شيء!»

وتوجهت للشرطي بقولي:

«أنصحك أن تدعني وشأني أيها الشرطي، فالجميع في سكوتلاند يارد - مقر الشرطة البريطانية - يعلمون عني كل شيء، وسيتم توبيخك على نحو ملائم إن اعترضت طريقي».

فقال لي:

«يجب عليك أن تأتي معي أيها الشاب، فقد رأيتك تهاجم ذلك الرجل النبيل، افتعلت الأمر دون أن يفعل هو أي شيء، شاهدت ذلك، لذا فالأفضل لك أن تسير معي بهدوء أو سأضطر لاجبارك».

أعطاني شعوري بالسخط قوة فيل ثائر فباعدت الشرطي بضربة على قدميه وطرحت الرجل الذي كان ممسكًا بعنقي أرضًا، وانطلقت بالخطوة السريعة في شارع «ديوك» لأستمع لصفير قد تم إطلاقه، وحفنة من الرجال يلحقون بي، كان لدي قدرة عادية على العدو بسرعة، ولكني بدوت كمن يملك أجنحة في تلك الليلة، ففي لمح البصر بلغت «بول مول»، ومن ثم انحرفت تجاه شارع «جايمس بارك»، إذ تفاديت الشرطي بالانغماس في حشد من الحافلات عند مدخل المركز التجاري (المول)، وكنت قد وصلت الجسر قبيل عبور متعقبيني للطريق حتى..

وفي طريق الحديقة الواسع انطلقت بسرعة جنونية، ولحسن حظي أنه كان هناك عدد قليل من الناس إذ لم يوقفني أحد، كنت أسابق الزمن لبلوغ بوابة كوين آن، وعندما دخلت هذا الطريق الهادئ الذي يقبع فيه منزل السيد «والتر» بدا وكأنه مهجور، بينما تستكين أمامه ثلاث أو أربع سيارات خارجًا، فخففت من سرعتي قليلًا واتجهت قبالة الباب، وكان لينتهي أمري إن رفض الخادم دخولي أو إن تأخر حتى في الاستجابة، لكنه لم يتأخر حيث دق الجرس بالكاد ليفتح وأشرع في إخباره لاهثًا:

«يجب علي أن أرى السيد والتر، الأمر مهم للغاية».

كان كبير الخدم هذا رجلًا لطيفًا، إذ أمسك بالباب لحين ولوجي ومن ثم أغلقه خلفي دون تردد.

فقال لي: «إن السيد والتر مشغول الآن يا سيدي، ولدي أوامر بعدم السماح بدخول أحد، ربما يتعين عليك الانتظار».

كان المنزل من الطراز العتيق، ردهة واسعة وحجرات على كلا جانبيها، بينما يتراءى لك في زاوية بعيدة هاتف إلى جانب مقعدين يحيطان به، حيثما عرض علي الخادم الجلوس على أحدهما، فهمست له قائلًا:

«اسمع، هناك مشكلة ما وأنا متورط بها، لكن السيد والتر على علم بذلك، فأنا أعمل لصالحه، لذا فإن جاء أحدهم وسألك عني، أخبره أية كذبة».

فأومأ برأسه موافقًا، وبالفعل كان هناك صوت ضجيج في الشارع ورنين جنوني على جرس الباب، وعليّ أن أعترف أني أعجبت بذلك الرجل كثيرًا، إذ فتح وبوجه ثابت كتمثال انتظر حتى يتم سؤاله، ومن ثم قام بالنيل منهم، فأخبرهم منزل من يكون هذا، والأوامر التي تلقاها لتوه، لتتجمد أجسادهم عند عتبة الباب وينصرفوا بعدها، كنت أشاهد كل ظلك من الزاوية التي أجلس بها، أشاهده وكأنه عرض مسرحي، ولم يمر وقت طويل إلا ودق الجرس مجددًا ولم يتوان الخادم في السماح للزائر بالدخول، وبينما كان يساعده في خلع معطفه تعرفت عليه، إذ لا يتسنى لك فتح جريدة أو مجلة دون أن ترى ذلك الوجه بها، بلحيته الرمادية المشحوذة بعناية، فمه الصارم، أنفه وعينيه الزرقاوين الثاقبتين، تعرفت على القائد البحري الأول، الرجل الذي صنع الأسطول البريطاني كما يقولون، مر بجانبي بينما أرشده الخادم نحو غرفة في الجزء الخلفي من القاعة، وعندما فتح الباب تسللت إلى أذنيّ بعض الأصوات المتهامسة، ومن ثم أغلق لأعود لحالي مرة أخرى.

مكثت هناك لعشرين دقيقة، أتساءل عما سأفعله بعد ذلك، كنت لا أزال مقتنعًا تمامًا بأن الأمر سيتطلب وجودي، ولكن متى وكيف لم يكن لدي أي فكرة، ظللت أنظر إلى ساعتي، ومع انقضاء الوقت حتى

بلغت العاشرة والنصف شرعت أعتقد أن ذلك الاجتماع من شأنه أن ينتهي قريبًا، ففي غضون ربع ساعة على «روير» أن يصبح في طريقه المؤدي إلى «بورتسموث».. ثم سمعت رنين الجرس، وظهر الخادم وفتح باب الغرفة الخلفية ليخرج منها أحد القادة، والذي سار أمامي، ومن ثم توجه بنظرة سريعة في اتجاهي، ولثانية واحدة نظرنا إلى بعضنا البعض مباشرة، فقط لثانية واحدة، لكنها كانت كافية لجعل قلبي يقفز من مكانه، لم أر هذا الرجل المهيب من قبل، ولم يرني بدوره أبدًا، ولكن في ذلك الوقت بدا وكأن هناك وميضًا في عينيه، وميضًا لا يمكنه أن يعد شيئًا آخر سوى تمييزه إياي، لا يسعك أن تخطئه، تلك الشرارة، ذلك البريق، دقيقة من الوقت لم تحمل سوى استنتاج واحد، واحد ليس له ثان، شعرت وكأن ما سأفعله إلزاميًّا، فمجرد خروجه وسماعي لصوت الباب يغلق خلفه، التقطت دفتر الهاتف وبحثت عن رقم منزل الرجل الذي خطر على بالي، كنت متيقنًا من أننا تواصلنا من قبل، ليجيبني صوت خادم، سألته: «هل سيادته في البيت؟».

فأجابني:

«سيادته قد عاد من نصف ساعة، ومن ثم فقد آوى إلى الفراش إذ يشعر بالسوء قليلًا هذه الليلة، هل تود ترك رسالة يا سيدي؟».

فأغلقت سريعًا واندثرت مرتعدًا في مقعدي..

لم يكن دوري في تلك القضية قد انتهى بعد، إذ كنت هناك في الوقت المناسب ولا أملك لحظة كي أهدرها، لذا تقدمت بجرأة حتى باب الغرفة الخلفية ودلفت دون أن أطرق الباب حتى، فتفحصني خمسة على وجوههم معالم الدهشة، بينما يجلسون حول منضدة مستديرة، كان هناك السيد والتر، ووزير الدفاع «درو»، والذي تعرفت عليه من صوره، كهل نحيل والذي كان «ويتاكر» على الأغلب، المسئول الأميرالي، الجنرال «وينستاني» والندبة على جبينه، وأخيرًا رجل قصير وبدين ذو شارب رمادي وحاجبان كثيفان والذي بدا كمن تم مقاطعته في منتصف الحديث، أظهر السيد والتر وجهًا متفاجئًا ومنزعجًا ثم قال:

«هذا هو السيد هاناي، الذي تحدثت إليكم عنه».

والتفت إلي آسفًا:

«أخشى إخبارك أن تلك الزيارة في توقيت سيئ الآن يا هاناي».

فأجبته بينما أستعيد رباطة جأشي قائلًا:

«هذا أمر جلي يا سيدي، ولكني أعتقد أنه وقت مناسب تمامًا، فليخبرني أحدكم بحق السماء أيها النبلاء، من هذا الذي خرج لتوه منذ دقيقة مضت؟».

فقال السيد والتر بينما احمر وجهه من الغضب:

«إنه اللورد ألوا!».

فصحت:

«لا، ليس هو! ربما صورة حية له لكنه ليس اللورد ألوا، إنه شخص ما قد تعرف علي مسبقًا، وكأنني رأيته خلال الشهر المنصرم، لقد غادر عتبة المنزل بمجرد اتصالي بمنزل اللورد ألوا واكتشافي أنه قد أتى قبل نصف ساعة، ومن ثم آوى للفراش».

فسأل أحدهم متلعثمًا:

«إذًا من؟ من؟».

فصحت مجددًا:

«البلاك ستون!».

ومن ثم جلست في مقعده الذي فرغ لتوه، أجول بنظري في خمسة أوجه مصابة بالهلع التام..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل التاسع

الدرجات التسع وثلاثون

«هراء» قالها المسئول الأدميرالي. قبل أن ينهض السيد «والتر» مغادرًا الغرفة بينما ننظر جميعنا مشدوهين على نحو خال من التعبير تجاه المنضدة، ليعود أدراجه خلال عشر دقائق بوجه مثقل بالهموم قائلًا:

«لقد هاتفت ألوا بنفسي، وجعلته ينهض من فراشه غاضبًا، ليخبرني أنه بلغ المنزل مباشرة بعد عشاء مولروس».

فقاطعه الجنرال وينستانلي:

«لكن هذا جنون! هل تعني أن ذاك الرجل جاء إلى هنا وجلس بجانبي قرابة نصف الساعة ولم أكتشف هذا الخداع؟ من المؤكد أن ألوا قد فقد عقله!».

فقلت لهم:

«ألا ترون دهاء الحيلة؟ لقد كنتم منشغلين جدًّا بما تفعلون حتى أنكم لم تلتفتوا إليه ولو للحظة وكأن حضور السيد ألوا لاجتماعنا أمر مفروغ منه، لو كان ادعى أنه شخص آخر لربما كنا تفحصناه عن كثب، ولكن كان من الطبيعي وجود ألوا معنا، وهذا ما جعلكم تغفلون وجوده تمامًا».

وهنا تدخل الرجل الفرنسي بروية وبلغة إنجليزية جيدة:

«هذا الشاب على حق، فقد استطاع تحليل الأمر من الناحية النفسية بطريقة جيدة، فإن أعداءنا لا يستهان بهم».

واستكمل بينما يعقد حاجبيه في حكمة بالغة أمام الجمع:

«سأتلو عليكم قصة، حدثت منذ عدة سنوات في السنغال حيث كنت أقطن في محطة نائية، ولقضاء وقتي كنت أخرج لصيد السمك من النهر، فيما اعتدت حمل سلة غدائي على ظهر مهرة عربية صغيرة، والذي يحوي ذاك الخبز الداكن المملح الذي كان بإمكانك التحصل عليه في «تمبكتو» بالأيام الخوالي..

حسنًا، ففي صباح أحد الأيام وبينما كنت أمارس رياضتي تلك، كادت المهرة أن يجن جنونها، كنت أستمع إلى صهيلها، وصياحها الحاد، وصوت أقدامها ترفس الأرض، اكتفيت بتهدئتها عن بعد إذ كان عقلي منكبًّا على سمكة تظهر أمامي، ونظرًا لأنها كانت مربوطة في شجرة على بعد عشرين ياردة مني كي يتسنى لي رؤيتها وقتما أشاء، أو حسب ما ظننت، وبعد مرور ساعتين شرعت أفكر في تناول الطعام، فاستجمعت أسماكي في حقيبتي القماشية وقطعت طريقي نحو المهرة، وبينما أستعد لوضع الحقيبة فوق ظهرها».

.. توقف وجالَ بنظره ثم أكمل:

«اشتممت شيئًا قد أوجب عليّ الحذر، لألتفت برأسي فأجدني قبالة أسد على مسافة ثلاثة أقدام...

حيوان مفترس آكل للحوم البشر، كان يلقي الرعب في نفوس القرية بأكملها، أما ما تبقى من المهرة فكان مقدارًا كبيرًا من الدماء، والعظام، والجلد المطروح أرضًا من خلفهم، فسألته:

«ماذا حدث؟».

إذ كنت صيادًا ماهرًا بما فيه الكفاية كي أميز الحقيقة لدى سماعها..

فأجاب:

«غرزت صنارتي في فكه، كان لدي سلاح أيضًا، كما حضر الخدم ببنادقهم، لكنه استطاع ترك علامة علي»، وأشار لي بيد تفتقر لثلاثة أصابع قائلًا:

«انظر، لقيت تلك المهرة حتفها في أقل من ساعة، بينما ظل هذا الوحش يراقبني بصبر بالغ خلال ذلك الحين، لم أتمكن من التكهن بطريقة قتلها حتى، إذ كنت معتادًا على ثوراتها تلك، ولم أتوقع فقدانها هكذا، كان الأسد قادرًا على استغلال هذا الجزء. وإن كان بإمكاني أن أخطئ بأمر كهذا أيها السادة، وفي أرض لا تخطئ فيها حواس الرجال، فكيف نرهق أذهاننا بخدعة واحد من العامة والذي تمكن من اتباع الحيلة ذاتها؟».

فأومأ السيد «والتر» برأسه متفقًا عقب الحديث، إذ لم يكن أحدهم على استعداد للاختلاف معه بعد ما قاله، حتى فعلها السيد وينستانلي وقال:«لكنني لا أفهم، هدفهم هو بلوغ كل الترتيبات دون علمنا، ولكن كل ما تطلبه الأمر منا هو ذكر اجتماع الليلة للسيد ألوا حتى تكتشف الخدعة بأكملها».

فضحك السيد والتر بجفاء:

«اختيار ألوا يعكس ذكاءهم الشديد، فما كانت احتمالية حديث أي منا معه عن هذه الليلة؟ أو احتمالية أن يقوم هو بطرح الموضوع؟».

أذكر ما ظهر على وجه قائد الأسطول البحري من ضيق وحنق، حتى تدخل الجنرال بقوله:

«الأمر الوحيد الذي يسبب لي الحيرة هو أية فائدة قد تعود على هذا الجاسوس جراء زيارته تلك؟ فلم يستطع الاحتفاظ بأية من الصفحات أو الأسماء في رأسه».

فأجابه الرجل الفرنسي: «هذا ليس بأمر عسير، إذ يتم تدريب الجاسوس على أن يمتلك ذاكرة تصويرية، لقد لاحظت أنه لم يتفوه بشيء، بل ظل يقلب هذه الأوراق مرارًا وتكرارًا، أعتقد أنه يمكننا افتراض أنه قد ختم كل تفصيلة في ذهنه الآن، فعندما كنت أصغر سنًّا، كان باستطاعتي القيام بنفس الحيلة».

فقال السيد «والتر» بأسف يرثى له:

«حسنًا، أفترض أنه لا يوجد بوسعنا ما نفعله سوى تغيير الخطط».

بينما نظر «ويتاكر» متهجمًا وسألني:

«هل أخبرت اللورد ألوا بحقيقة ما حدث؟».

فقلت له:

«لا».

فاستكمل: حسنًا، لست متأكدًا بالطبع، ولكني على يقين من أننا لن نتمكن من إجراء أي تغيير جدي ما لم نغير من جغرافية إنجلترا نفسها».

فتدخل «روير»: «هناك أمر آخر علينا تذكره، لقد تحدثت بحرية عندما كان هذا الرجل هنا، تحدثت عن الخطط العسكرية لحكومتي، إذ كان مسموحًا لي أن أقول ذلك، لكن تلك المعلومات تقدر بملايين لدى أعدائنا، لا يا أصدقائي، لا أرى أي طريق آخر، علينا أن نمسك بهذا الرجل هو وحلفاؤه، نمسك بهم على الفور».

فصحت على إثر ذلك: «يا إلهي، حتى أننا لا نملك مفتاحًا واحدًا لحل اللغز».

وأضاف «ويتاكر»: «الأخبار ستكون في طريقها إليهم».

فأجابه الرجل الفرنسي:

«لا، أنت لا تعي سلوك الجاسوس، فهو يتلقى مكافأته شخصيًّا، ويسلم ما توصل إليه شخصيًّا أيضًا، فنحن في فرنسا نعهد هذا النوع جيدًا، لذا فلا تزال هناك فرصة يا أصدقائي، إذ يتعين على هؤلاء الرجال عبور البحر، وهناك سفن علينا تفتيشها وموانئ يمكننا مراقبتها. صدقوني، إن الأمر ضروري لكلا الجانبين الفرنسي والبريطاني».

انتقل الشعور الإيجابي لدى «روير» إلينا قليلًا، إذ يعد رجل أفعال لا أقوالًا من بين الجميع، لكنني لم أر بصيص أمل واضحًا، فكيف سنتمكن من وضع أيدينا على هؤلاء المحتالين الأمهر في أوروبا ذات الخمسين مليون جزيرة وفي خلال اثنتا عشرة ساعة فقط!

ثم جاءني إلهام مفاجئ، وصحت أسال السيد «والتر»:

«أين مفكرة سكودر؟ أسرع يا رجل! لقد تذكرت شيئًا فيها».

ففتح درجًا في المنضدة وأعطاني إياه، لأجول بين الصفحات حتى وجدت المكان، فتعالت نبرة صوتي بينما أشرع في قراءة ما خطه «سكودر»:

«الدرجات التسع وثلاثون!» وأقرؤها مرة أخرى «الدرجات التسع وثلاثون، لقد أحصيتها، والمد العالي في تمام الساعة ١٠:١٧ مساء».

كان رجل الأميرالية ينظر إليّ كما لو أنني قد فقدت عقلي، فتوجهت بحديثي إليه:

«ألا ترى ذلك كأول الخيط! فقد عرف سكودر أين يقبع هؤلاء المخادعون، كما كان يعلم إلى أين سيذهبون حال مغادرة البلاد، على الرغم من أنه احتفظ بذلك لنفسه، ولكن غدًا هو اليوم المنشود، إذ إنهم سيتواجدون في مكان ما سيشهد ظاهرة مد عنيفة في تمام الساعة ١٠:١٧ مساء».

فقال أحدهم:

«قد يكونوا قد ذهبوا الليلة».

فأجبته:

«لا، ليسوا من ذلك النوع، فإن لديهم طرقهم السرية المحكومة بالتفاصيل، ولن يتعجلوا الأمر، أنا أعرف الألمان، يجن جنونهم بالعمل وفقًا للخطة الموضوعة، لذا أخبروني أين يمكننا الحصول على جدول لحركة المد بحق الجحيم؟».

فابتهج ويتاكر قليلًا وقال:

«إنها فرصة جيدة، دعونا نذهب إلى الأميرالية».

دلفنا جميعنا في سيارتين من السيارات التي كانت تنتظر أمام المنزل، باستثناء السيد «والتر» الذي توجه بدوره إلى سكوتلانديارد، ليبلغ «ماكجيليفراي» كي يصبح على أهبة الاستعداد على حد زعمه، سرنا عبر ممرات ذات غرف كبيرة خالية، حتى وصلنا إلى غرفة صغيرة مصطفة بالكتب والخرائط، وموظف مقيم أحضر لنا جداول المد والجزر في الحال من المكتبة التابعة للأدميرال، جلست على المكتب بينما يقف الآخرون من حولي، وبطريقة أو بأخرى تحولت إلى مسئول عن تلك المهمة، وهو ما لم يسر على نحو جيد على الإطلاق.

كانت هناك مئات السجلات، وقدر ما استطعت فقد تراءى لي أن ١٠.١٧ قد تغطي خمسين مكانًا، كان علينا أن نجد طريقة لتضييق الاحتمالات، وضعت رأسي بين يدي وشرعت أفكر، يجب أن يكون هناك طريقة لقراءة تلك الأحجية، ماذا كان يعني بكلمة درجات؟ فكرت في أرصفة السفن، ولكن إذا كان هذا ما يعنيه فلا أعتقد أنه كان ليأتي على ذكر الرقم، يجب أن يكون مكان ما حيث توجد عدة سلالم، بينما يميز أحدهم وجود تسعة وثلاثين درجة منها، ثم جاءتني فكرة مفاجئة تفحصت على إثرها حركة جميع الباخرات. وبالفعل لم ولن يغادر البر أي قارب في تمام الساعة ١٠.١٧ مساءً، فلم قد تكون حركة المد المرتفعة أمرًا هامًّا؟ إلا إذا كان هذا المكان هو ميناء حيث تشكل حركة المد مثل هذه الأهمية، أو أنه قارب ذو حمولة ثقيلة! ولكن لم يكن هناك أية باخرة عادية من شأنها أن تبحر في تلك الساعة، وبطريقة ما قد استنتجت أنهم لن يبحروا بقارب كبير من ميناء عادي.

لذا، يجب أن يكون هناك ميناء صغير حيث يعد أمر المد مهمًّا، أو ربما لا يوجد ميناء من الأساس، ولكن إذا كان مرفأ صغيرًا فلم أتمكن من معرفة ما تشير إليه تلك الدرجات، إذ لم تكن هناك مجموعات من السلالم في أي ميناء رأيته في حياتي، يجب أن يكون مكانًا مزودًا بدرج خاص، والمد على آخره في ١٠.١٧. على أية حال، بدا لي أن المكان يجب أن يكون على ساحل مفتوح، ولكن أمر الدرجات هذا ظل محيرًا بالنسبة لي، ثم حاولت أن أرى المسألة من منظور أوسع، فمن أين يمكن أن يغادر رجل إلى ألمانيا؟ رجل في عجلة من أمره، رجل يستهدف السرعة وممرًّا سريًّا؟ ليس أي من الموانئ الكبيرة، القناة، الساحل الغربي أو اسكتلندا! واضعين في الاعتبار أن البداية هي لندن.

قمت بقياس المسافة على الخريطة، وحاولت وضع نفسي مكان خصمي، من «أوستند» أو «أنتويرب» أو «روتردام»، ويجب أن أبحر من مكان ما على الساحل الشرقي بين «كرومر»

و«دوفر»، كل هذا كان تخمينًا غير دقيق للغاية، ولا أدعي أنه كان عبقريًّا أو على أساس علمي، إذ إنني لست كـ«شرلوك هولمز» لا من قريب ولا من بعيد، لكني دائمًا ما كنت أعتقد أن لدي نوعًا من الموهبة حيال ألغاز كهذه، لا أعرف ما إذا كان بوسعي أن أفسر ما كنت أفعله، لكنني كنت أذهب بفكري إلى حد بعيد، وبعدما يصطدم بفراغ، أخمن، وعادةً ما يتبين أن تخميني صحيح، لذا فقد أخرجت كل استنتاجاتي تلك على ورق الأدميرالية.

ليسير الأمر هكذا:

١- إن الشيء المؤكد بوضوح كونه مكانًا يحوي عدة مجموعات من السلالم، يتميز أحدها بوجود تسعة وثلاثين درجة.

٢-أن هناك مدًّا كاملًا عند الساعة ١٠:١٧ مساء ومغادرة الساحل ممكنة فقط خلال ذلك الوقت.

٣- تلك الدرجات ليست بدرجات مرسى للسفن، ومن المحتمل أن هذا المكان ليس ميناء.

٤-لا توجد باخرة ليلية عادية من شأنها أن تبحر في هذا الموعد، فأعتبرها خارج الاحتمالات لأستقر على كونها يختًا أو قارب صيد، وهنا توقفت قليلًا كي أعد قائمة أخرى والتي أعطيتها عنوان «تخمينات»، ولكني كنت على نفس القدر من اليقين تجاه جميعها، التخمين الأول: أن ذلك مكان ليس بمرفأ ولكنه أقرب إلى ساحل مفتوح، التخمين الثاني: أنه على الأغلب قارب صيد، يخت أو زورق، التخمين الثالث: هو كونه مكانًا ما على الساحل الشرقي بين كرومر ودوفر، لقد كان الأمر غريبًا كوني جالسًا أمام وزير، قائد ميداني، اثنين من كبار المسئولين الحكوميين، والجنرال الفرنسي يترقبونني بينما أحاول حل لغز من كتابات رجل ميت، لغز يعد مسألة حياة أو موت بالنسبة لنا!

انضم إلينا السير «والتر» ثم وصل «ماكجليفري»، كان قد أرسل تعليمات لمراقبة الموانئ ومحطات السكك الحديدية بمواصفات الرجال الثلاثة التي بلغتها للسيد والتر، مع العلم أنه ليس من شأنه أو شأن آخر أن يعرف شيئًا عما أقوله، فأخبرتهم: «هذا هو ما كل ما استطعت فعله، يجب أن نعثر على مكان يوجد به العديد من السلالم المؤدية إلى الشاطئ، بينما يحتوي أحدها على تسعة وثلاثين درجة، أعتقد أنه جزء من ساحل مفتوح مع منحدرات صخرية ضخمة، مكان ما حيث المد الكامل في تمام ١٠.١٧ مساء».

وهنا خطرت لي فكرة فسألت:

«ألا يوجد مراقب من خفر السواحل أو أي شخص من شأنه أن يعرف الساحل الشرقي جيدًا؟».

فأجاب «ويتاكر» أن هناك رجلًا كذلك، وهو يقطن في «كلافام»، ومن ثم انطلق بسيارته لإحضاره، بينما نجلس بقيتنا في تلك الغرفة الصغيرة ونتحدث عن أي شيء يطرأ على أذهاننا.

أشعلت غليونًا وشرعت أفكر في الأمر من بدايته مرة أخرى حتى أرهق عقلي، وفي حوالي الواحدة صباحًا وصل الرجل المعني بأمور خفر السواحل هذا، كان رجلًا خيرًا كبيرًا في السن ذات نظرة ضباط البحرية، وجلس بعدما أظهر احترامًا للجمع، تركت مهمة استجوابه للوزير، لأني شعرت أنه من الوقاحة أن أتحدث بنفسي، فقال له:

«نريد منك أن تخبرنا بالأماكن التي تعرفها على الساحل الشرقي حيث تتواجد بها المنحدرات، وحيثما تقودك مجموعات من السلالم ناحية الشاطئ».

فاستغرق في الفكر قليلًا ثم سأل: «أي نوع من الدرجات تقصده يا سيدي؟ هناك الكثير من الأماكن التي تنحدر منها الطرق، ومعظم هذه الطرق تمتلك درجة أو اثنتين، هل تعني سلالم عادية؟ أو خطوات إن جاز التعبير؟».

فنظر السيد «آرثر» تجاهي لأجيب:

«نقصد سلالم عادية».

فشرد لدقيقة أو اثنتين وقال:

«لا يسعني التفكير في أي شيء، انتظر لحظة، هناك مكان في «نورفولك براتلي سهام» بجانب ملعب للجولف، حيث يوجد سلالم كي تسمح للسادة بالحصول على الكرة المفقودة».

فقلت له: «لا ليس هو، إذ هناك الكثير من تلك الأماكن الخاصة بالعروض والمسابقات إن كان هذا هو ما تقصده، فكل منتجع على شاطئ لديه هذا الجزء، يجب أن يكون المكان أكثر عزلة».

فجاء رده:

«حسنًا أيها السادة، لا يسعني التفكير في أي مكان آخر، ولكن بالطبع هناك القبة المعروفة».

فسألته:

«وما هذه؟».

ليجيب قائلًا:

«بقعة واسعة في «كينت»، بالقرب من «برادجيت»، تحوي العديد من الفيلات في أعلاها، وبعض المنازل بها سلالم خاصة تقودك نحو الشاطئ، إذ إنه مكان مرتفع للغاية، وقاطنوه يفضلون العزلة». وهنا قمت بفتح جداول حركة المد والجزر لأجد «برادجيت»، كي يتبين لي المد العالي الذي من شأنه أن يحدث هناك في تمام الساعة ١٠.١٧ مساء بالخامس عشر من يونيو، لأصرخ في حماسة:

«لقد تقفينا الأثر الصحيح أخيرًا!».

وسألته «كيف يمكنني الوصول لذلك المكان؟».

فقال: «يمكنني أن أدلك يا سيدي، لقد كنت أستأجر منزلًا هناك منذ وقت قريب كي أخرج للصيد ليلًا في عمق البحر، ستجد ذلك على بعد عشر دقائق من برادجيت».

فأغلقت الكتيب وتجولت بنظري في الجمع قائلًا:

«إذا كان أحد هذه السلالم يحوي تسعة وثلاثين درجة فإن اللغز قد تم حله أيها السادة، أريد استعارة سيارتك يا سيد والتر وخارطة للطريق، ولو أمكن سيد «ماكجليفري» تخصيص عشر دقائق من وقته

فسوف نتحصل على شيء ما للغد».

كان من السخف أن أتولى مسئولية هذا العمل وحدي هكذا، ولكن لم يبدُ لي أن أحدهم يمانع، خاصة بعد أن أصبحت جزءًا من العرض منذ بدايته، إلى جانب ذلك فقد كنت معتادًا على مثل هذه الأمور، أما هؤلاء السادة ذوو المكانة المرموقة فقد كانوا على قدر كافٍ من اللباقة كي يتفهموها.. لكنني لم أحصل على تفويض لفظي سوى من الجنرال «روير» والذي قال:

«أنا شخصيًّا مقتنع تمامًا بترك هذه المسألة في يد السيد هاناي».

وبحلول الثالثة والنصف كنت أقطع طريق «كينت» المضاءة بنور القمر، بينما يجلس «ماكجيليفراي» إلى جواري.

∞∞∞∞∞

فريق متميزون
E-BOOK

الفصل العاشر

أطراف متباينة على ضفاف البحر

في صباح أحد أيام شهر يونيو حيث السماء الزرقاء ممزوجة باللون الوردي، كنت في برادجيت أنظر من شرفة فندق «غريفين» المطل على بحر رائق، حيث تسير مركب صغير بدت أشبه ما تكون بالعوامة، أما على بعد بضعة أميال جنوبًا، وبالقرب من الشاطئ، كانت ترسو مدمرة حربية، إذ كان «سكايف» الرجل التابع لـ«ماكجليفري» والذي خدم في البحرية يعرفها جيدًا وهو من أخبرني بدوره عن اسمها وقائدها، وعلى إثر ذلك فقد أرسلت برقية للسيد والتر أعلمه بالأمر بعد الإفطار، تحصل «سكايف» على مفتاح لبوابات تلك السلالم من أحد سماسرة العقارات، سرت معه على امتداد رمال الشاطئ، ومن ثم جلست في زاوية على أحد المنحدرات بينما شرع هو يتفحصها، لم أرد أن يراني أحد، رغم أن المكان في تلك الساعة كان مهجورًا تمامًا، لم يتسنى لي رؤية أي شيء طوال المدة التي قضيتها على الشاطئ سوى نوارس البحر.

استغرق الأمر منه أكثر من ساعة للقيام بهذه المهمة، وعندما رأيته يتقدم نحوي، مشيرًا إلى ما يحمله الورق يمكنني أن أخبركم أن قلبي كان على وشك الخروج من مكانه، إذ كان كل شيء يعتمد على ذلك، فكما تعلمون كنت أود معرفة ما إذا كان تخميني صحيحًا أم لا. شرع يقرأ عليّ عدد الدرجات في السلالم المختلفة بصوت عال: «أربعة وثلاثون، خمسة وثلاثون، تسعة وثلاثون، اثنان وأربعون، سبعة وأربعون وواحد وعشرون» فصحت منتفضًا من مكاني.

وهرعنا بعد ذلك إلى البلدة كي أراسل «ماكجليفري» لأطلب منه نصف دزينة من الرجال الذين أمرتهم أن يقسموا أنفسهم ما بين فنادق مختلفة بعينها، كما شرع «سكايف» بدوره في استكشاف المنزل ذي التسع وثلاثين درجة، ليعود أدراجه بأخبار قد أصابتني بالحيرة والاطمئنان في آن واحد، إذ كان ذلك المكان يدعى «ترافالجار لودج»، وكان ينتمي إلى رجل كبير يدعى «أبلتون» سمسار بورصة متقاعد على حد زعم سمسار العقارات..

لم يتمكن سكايف من الحصول على الكثير من المعلومات عنه، عدا كونه عجوزًا لطيفًا، يدفع فواتيره بانتظام، وكان دائمًا ما يساهم بتبرعات لجمعية خيرية محلية، فحاول «سكايف» اختراق المنزل من خلال التسلل من الباب الخلفي له متظاهرًا بأنه عامل لتسويق ماكينات الخياطة، فوجد ثلاثة خدم فقط: طاهية، خادمة ومعهم مدبرة منزل، وكانوا من النوع الذي تجدونه في أسرة مرموقة من الطبقة الوسطى، لم تكن الطاهية من النوع الثرثار، وسرعان ما أغلقت الباب في وجهه، إلا أن «سكاييف» كان متيقنًا من أنها لا تعلم شيئًا.

أما في البيت المجاور، مبنى سكني جديد والذي كان من شأنه أن يشكل ستارًا جيدًا للمراقبة، فيما كانت الفيلا على الجانب الآخر معروضة للإيجار، وبها حديقة كثيفة الشجيرات، استعرت منظار «سكايف» وسرت على امتداد المكان قبل تناول طعام الغداء، كنت متخفيًا على نحو جيد خلف الفيلات حتى عثرت على نقطة جيدة للمراقبة على حافة ملعب الجولف، تسنى لي رؤية البقع الخضراء على امتداد قمة المنحدر بأكمله من خلاله، إضافة إلى المقاعد التي تتمركز على مسافات

متباعدة، والبقاع الصغيرة المربعة المحاطة بسياج وتحوي الشجيرات بينما تنحدر السلالم منها إلى الشاطئ، شاهدت منزل «ترافالجار» بوضوح تام، فيلا من الطوب الأحمر ذات شرفة، باحة خلفية للتنس، وأمامه حديقة من الزهور تملؤها نباتات الأقحوان قبالة البحر، كما كانت هناك سارية معلق بها علم المملكة المتحدة مرفرفًا في الهواء.

وفي ذلك الحين لاحظت خروج شخص ما من المنزل يسير على طول المنحدر، عندما ارتديت نظاراتي تراءى لي أنه رجل عجوز في سروال خفيف أبيض، سترة زرقاء، وقبعة بلون القش الفاتح، كان يحمل نظارات معظمة وصحيفة، ومن ثم جلس على أحد المقاعد الحديدية وشرع في القراءة، كان يضع الصحيفة جانبًا بين الحين والآخر ويلقي نظرة على البحر، استقر بنظره لفترة طويلة على المدمرة الحربية، واستمريت في مراقبته قرابة نصف الساعة، حتى نهض وعاد إلى المنزل لتناول الغداء، وعدت أنا أيضًا إلى الفندق للسبب نفسه.

لم أكن أشعر بنفس الثقة التي انتابتني مسبقًا، إذ لم يكن ذلك المنزل مثلما كنت أتوقعه، قد يكون ذلك الرجل عالم آثار يتقفى تلك المنطقة فحسب، أو ربما لا، فقد كان من النوع النموذجي الذي قد تتمكن من العثور عليه في أية ضاحية أو مكان لقضاء العطلة، فإذا كنت تبحث عن نوع الأشخاص المسالمين تمامًا فكان بإمكانك التوجه إليه، ولكن بعد الغداء وعندما جلست في شرفة الفندق، انتبهت لحدوث ما كنت آمل رؤيته وأخشاه في الوقت نفسه، حيث جاء يخت من الجنوب ليرسو قبالة الساحل. بدت تلك السفينة الصغيرة في وزن مائة وخمسين طنًّا، وكما تراءى لنا فقد كانت تنتمي للأسطول البريطاني نظرًا للعلم الذي تحمله، توجهنا أنا وسكايف إلى المرفأ واستأجرنا مركبًا بغرض صيد السمك وقت الظهيرة، قضيت ظهر ذاك اليوم براحة وسلام، ونجحنا في اصطياد قرابة العشرين رطلاً من سمك القد والبولاك، كما تسنى لي رؤية صورة أفضل لما فوق المنحدرات البيضاء خاصة سارية العلم الشاهقة أمام منزل «ترافالجار». وفي حوالي الساعة الرابعة، وعندما اكتفينا من الصيد أمرت صاحب المركب أن يجول بنا حول تلك السفينة، والتي ترسو كطائر أبيض جاهز للفرار في أي لحظة، وحينها أخبرني سكاييف أنه لابد وأنها سريعة للغاية نظرًا لبنائها، ومحركاتها القوية، التقطت أن اسمها «أريادن» من قبعة أحد الرجال الذين كانوا يقومون بتلميع بعض أجزائها، والذي تحدثت إليه ليجيبني بلهجة الإيسكس الريفية، بينما تحدث آخر على مدار اليوم بلسان إنجليزي جلي تمامًا.

ومن ثم تجاذب المراكبي أطراف الحديث مع أحد الرجال حول حالة الطقس، إذ وضعنا مجاديفنا جانبًا لبضع دقائق وتمركزنا قرابة مقدمة السفينة، إلى أن تجاهلنا هؤلاء الرجال فجأة، وانكبوا على أعمالهم فور مرور أحد الضباط على ظهرها، والذي بدا شابًّا لطيفا ذا مظهر نظيف كليًّا، وطرح علينا سؤالًا حول رحلة الصيد بلكنة إنجليزية جيدة جدًّا تزيل أي شكوك عنه، فإن شعره القصير هذا وربطة عنقه لم يذهبا بعيدًا عن إنجلترا من قبل، الأمر الذي كان من شأنه طمأنتي قليلًا، ولكن شكوكي لم تتلاشَ بعد، إذ عادت بعدما جدفنا تجاه «برادجيت» على الفور، فأكثر ما كان يقلقني هو فكرة أن أعدائي على علم بأنني قد استجمعت معرفتي تلك من «سكودر»، وأن «سكودر» هو من ألهمني فكرة هذا المكان، فإذا كانوا على يقين بأنه يعلم به ألن يحاولوا تغيير خططهم؟ فإن نجاحهم بها أصبح يحمل مجازفة كبيرة، كان التساؤل الحقيقي هو لأي مدى يعرفون «سكودر» وطريقة فهمه

للأمور، كنت أتحدث أمس وأنا متأكد من تمسك الألمان بالعمل وفقًا للمخطط، ولكن إذا كان لديهم أي شكوك بأنني على نفس المسار فسيكون من الحمق ألا يغيرون ذلك، أتساءل إذا ما كان الرجل الذي رأيته الليلة الماضية قد أدرك أنني تعرفت عليه، بطريقة ما أشعر أنه لم يستطع، لكن الأمر برمته لن يصبح بصعوبة فترة الظهيرة التي اختبرناها وصولًا إلى تلك النجاحات، التقيت قائد المدمرة الحربية في الفندق فيما بعد حيث قام سكاييف بتقديمي إليه، والذي تبادلت معه حديثًا قليلًا، ثم اعتقدت أنه يجب علي مراقبة منزل «ترافالجار» لساعة أو ساعتين، عثرت على مكان بعيد أعلى التل، في حديقة منزل خال حيثما أصبح لدي رؤية كاملة للفناء والذي كان يحوي شخصين مستغرقين في لعب التنس، أحدهما كان العجوز الذي تسنى لي رؤيته بالفعل، والآخر كان أصغر سنًّا يرتدي وشاحًا ملونًا لفريق ما حول خصره.

كانوا يلعبون بحماس هائل، كاثنين من ممثلي المدينة الذين استهدفوا التدريب بطريقة شاقة، لا يمكنك تخيل مشهد أكثر براءة من هذا، إذ كانوا يصيحون، يضحكون، ويتوقفون قليلًا لاحتساء المشروبات عند خروج الخادمة بإبريقين على حامل من الفضة، حتى أنني فركت عينيّ ظنًّا بأني الأكثر حماقة على وجه الأرض، إذ كان اللغز بأكمله يدور حول رجال كأولئك الذين أمسكوا بي عند المستنقع بالطائرة والسيارة، وعلى نحو مؤكد فهم فقط من يمكننا ربط صلاتهم بالسكين الذي أسقط «سكودر» قتيلًا على الأرض، ولكن ما أراه هنا هو مواطنان سذج يمارسان رياضتهما المفضلة دون التسبب في أذى، وسرعان ما سيتوجهان إلى الداخل لتناول عشاء مضجر، حيثما يتحدثان خلاله عن أسعار السوق، آخر نتائج للعبة الكريكيت مع قليل من الثرثرة عن مواطنهما ربما في سوربيتون.

كنت أعد شبكة لاصطياد هؤلاء الأوغاد الجشعين، وها هم اثنان آخران قد وقعا فيها! وفي ذلك الحين وصل شخص ثالث، شاب على دراجة هوائية يحمل حقيبة من النوع الملائم لنوادي الجولف متدلية على ظهره، تجول على العشب، إلى أن بلغ اللاعبين وحياهم بشغف، إذ كانوا يمازحونه بالحديث، ولكن لكنتهم الإنجليزية بدت طبيعية بشكل كبير، ثم مسح الرجل البدين هذا على جبينه بمنديل حريري، إشارة إلى أنه سيذهب كي يتحمم، أذكر سماعه يقول:

«لقد بذلت مجهودًا كبيرًا من شأنه أن ينقصني بعض الوزن يا بوب، سأتغلب عليك غدًا في شوط استثنائي». دلفوا جميعًا إلى المنزل، وتركوني أشعر كأحمق كبير، إذ كنت أسعى وراء الشخص الخاطئ هذه المرة، قد يكون هؤلاء الرجال مدعين؛ ولكن إن كانوا كذلك فأين جمهورهم المستهدف؟ أين من يؤدون تلك الأدوار أمامه؟ إذ لم يكونوا على علم بوجودي على مسافة ثلاثين ياردة بين تلك الشجيرات..

كان من المستحيل الاعتقاد بأن زملاءنا الثلاثة الودودين هؤلاء قد يكونوا أي شيء سوى ثلاثة أشخاص عاديين، يمارسون لعبتهم، رجالاً من الضواحي الإنجليزية، مضجرين، إن شئنا قول ذلك، لكنهم أبرياء. ومع ذلك فكان منزل هؤلاء الثلاثة العجوز، البدين منهم؛ والنحيل الآخر ذو الوجه العابس له صلة ما وفقًا لملاحظات «سكودر»، وعلى بعد نصف ميل منهم ترسو سفينة بخارية تحمل على متنها ضابطًا ألمانيًا واحدًا على الأقل، شرعت أفكر في مقتل كاروليديس، أوروبا التي باتت ترتجف جراء تلك الهزة الأرضية، والرجال الذين تركتهم ورائي في لندن بينما ينتظرون أحداث الساعات القادمة بصبر نافد، لم يكن هناك شك في أن الجحيم كان يتأهب في مكان ما، لقد حقق البلاك

ستون نصرًا، وإذا نجوا من ليلة يونيه هذه، فسيحصدون غنائم ذلك النصر كاملة، يبدو أنه كان هناك شيء واحد فقط يجب علي القيام به إن كان لدي أي شكوك، فإذا كنت عازمًا على التصرف بحمق علي التصرف على نحو صحيح فحسب.

لم أواجه في حياتي عملًا بهذا القدر من النفور وعدم الارتياح قط، إذ كنت أفضّل السير داخل وكر الأناركيين، أو مواجهة أسد وأنا أحمل بندقية ما على دخول هذا البيت المليء بالبهجة كي أخبر هؤلاء الرجال الإنجليز أن لعبتهم قد انتهت، أتخيل لكم سيضحكون علي!

لكني تذكرت شيئًا كنت قد سمعته في روديسيا من ذلك العجوز «بيتر بينار»، إذ كان أفضل رجل كشافة عرفته في أي وقت مضى، وقبل أن يصبح رجلًا مستقيمًا حسن السمعة فقد كان يعمل خارج القانون في كثير من الأحيان، وعندما كان مطلوبًا بشدة من قبل السلطات، ذكر أمامي ذات مرة مسألة التنكر والتستر وراء شيء ما إذ كانت لديه حيلة صدمتني في ذلك الوقت، بأنه فيما عدا الأشياء المطلقة مثل بصمات الأصابع، فالتنكرات الجسدية وحدها لا يمكنها إخفاء هوية الهارب إذا ما قام بعمله على أكمل وجه.

كان يسخر من أمور كالشعر المخضب، اللحية الزائفة وتلك الحماقات الصبيانية، كان الشيء الوحيد الهام من وجهة نظر بيتر هو «الجو العام»، على حد زعمه، فإذا تمكن الإنسان من الدخول ببراعة في محيط مختلف تمامًا عن ذاك الذي شوهد فيه للمرة الأولى، فكل ما عليه فعله هو التصرف بواقعية كما لو أنها ليست وليدة اللحظة، الأمر الذي من شأنه أن يسبب الحيرة لأكثر المحققين دهاء على وجه الأرض.

كما كان «بيتر» معتادًا على رواية قصة ما لاثبات نظريته تلك، حيث اقترض معطفًا أسود ذات مرة وذهب إلى الكنيسة وتشارك كتاب التراتيل مع الرجل الذي كان يبحث عنه، إذ لم يتسنى لهذا الرجل أن رآه بمثل هذه الهيئة من قبل حتى يتمكن من التعرف عليه، لم يره سوى في منزل ما يثير الشغب بسلاحه.

منحني استذكار أحاديث «بيتر» تلك شعورًا بالراحة اختبرته للمرة الأولى في ذلك اليوم، كان بيتر حكيمًا واسع الأفق، وهؤلاء الزملاء الذين أسعى خلفهم كانوا على مقربة من بوابة القفص، ولكن ماذا لو كانوا يحيكون لعبة بيتر؟ حيث يحاول المخادع أن يبدو مختلفًا، رجل بنفس الصفات لكنه يبدو عكس ذلك، وللمرة الثانية تذكرت مقولة أخرى لبيتر كان من شأنها مساعدتي عندما كنت أتظاهر بكوني عامل طرق، إذ كانت تقول: «إذا كنت ستلعب دورًا فلن تحصل على النتيجة التي تسعى إليها إلا إذا بت قانعًا أنت بذلك». فمن الممكن أن تفسر تلك المقولة مباراة التنس التي شهدتها، إذ لم يكن أولئك الرجال بحاجة إلى التظاهر، قاموا فقط بالضغط على المكبس وعبروا إلى حياة مغايرة، والتي عايشوها بشكل طبيعي للغاية، بدا الأمر مبتذلًا بعض الشيء، لكن «بيتر» كان يواصل القول بأن ذلك هو السر الأكبر الذي يتشاركه ذائعو الصيت من المجرمين.

كانت الساعة تقارب الثامنة في ذلك الوقت فعدت لأرى سكايف كي أملي عليه تعليماته، استقريت معه أين ستكون مواقع رجاله، ومن ثم ذهبت في نزهة كوني لم أشعر برغبة في تناول العشاء، قمت بجولة حول ملعب الجولف المعزول هذا، ومن بعده إلى بقعة بعيدة على المنحدرات ناحية الشمال،

أبعد من اصطفاف الفيلات، وعلى هذه الطرق حديثة الإنشاء التقيت بأناس في ملابسهم الرياضية عائدين من لعب التنس وكذلك من الشاطئ، رجل من خفر السواحل، وبالونات على شكل مهرجين مربوطة قبالة المنازل.

وفي وقت الغسق تراءت لي أضواء على باخرة «أريادن» ومثلها على السفينة الحربية القابعة بعيدًا ناحية الجنوب، فيما خلف ذلك سطوع أضواء أكبر لبواخر على نهر «التايمز»، إذ كان المشهد بأكمله هادئًا واعتياديًّا مما خلف آثارًا إيجابية في روحي المعنوية بكل ثانية مرت، إلى أن قررت التجول نحو منزل «ترافالجار» قرابة التاسعة والنصف، وفي طريقي إلى ذلك شهدت واحدًا من كلاب الصيد الذي كان يتأرجح تابعًا لحذاء إحداهن العالي والذي ذكرني بكلب كنت أمتلكه في روديسيا، والذي اصطحبته ذات مرة للصيد في «بالي هيلز»، إذ كنا نسعى خلف ريبوك رمادي([14]) وكنت أستذكر كيف كنا نتبعه بينما فقد كل منا أثره، أما كلاب الصيد من نوع السلوقي هذه فهي تعتمد على دقة بصرها بشكل كبير، كان نظري جيدًا بما فيه الكفاية أيضًا، ولكن ذلك الظبي قد نجح بالفرار في نهاية المطاف، إذ كانت تغطينا سحابة رعدية توشك على الإمطار، فلم تكن تلك الفريسة بحاجة إلى الهرب حينها، كل ما كان عليها فعله هو الوقوف ساكنة حتى تتلاشى دون أن أتمكن من الإمساك بها.

وعندما طاردتني تلك الذكريات شرعت أفكر في وضعي الحالي والعبرة من الأمر بصورة عملية، إذ لم يكن «البلاك ستون» بحاجة إلى فعل شيء سوى البقاء بهدوء داخل المشهد، فشعرت أنني على المسار الصحيح واحتفظت بتلك الأفكار في عقلي متعهدًا بألا أتناساها أبدًا، كان من شأن رجال سكايف أن ينتشروا الآن، ولكن لم يكن هناك أي علامة على وجود شخص ما بالجوار، كما كان المنزل مفتوحًا كسوق، إذ كان بإمكان أي شخص أن يراقبه، كذلك جميع النوافذ في الطابق الأرضي، والتي عكست بدورها بعض الأضواء الخافتة وأصواتًا منخفضة للقاطنين وهم يتناولون العشاء.

كل شيء كان يبدو طبيعيًا كما لو متاح، كما لو أنه سوق خيرية، مما جعلني أستشعر كوني المغفل الأكبر على وجه الأرض، فتحت البوابة وقرعت الجرس، فأنا من النوع الرجال الذين سافروا حول العالم في الأماكن الوعرة، تعاملوا جيدًا مع كلتا الطبقتين العليا والأدنى منها، كانوا يفهمونني وأفهمهم، عشت في منزل إلى جوار رعاة، مشردين وعمال طرق، وكذلك كنت أتعامل بهدوء تام مع أناس مثل السيد «والتر» والرجال الذين التقيت بهم في الليلة الماضية، لا أستطيع أن أشرح السبب، لكنها حقيقة، ولكن ما لم يكن يدركه رجال مثلي هو عالم الطبقة المتوسطة الراضي مرتاح البال، الناس الذين يعيشون في الفيلات والضواحي، لا أدرك كيفية نظرتهم إلى الأشياء، إذ لست على وعي بتقاليدهم، وكنت أخشاهم كما أخشى الأفاعي تمامًا، فعندما فتحت لي الباب تلك الخادمة استطعت بالكاد أن أتفوه بكلمة.

سألت عن السيد «أبليتون» فأشارت لي بالدخول، فيما كنت أخطط للسير مباشرة تجاه غرفة الطعام، كي أفاجئ هؤلاء الرجال في حركة قد تؤكد نظرتي فيهم، ولكنني تناسيت هذا فور دخولي إلى تلك القاعة الأنيقة، كانت هناك متعلقات للجولف، مضارب التنس، قبعات، مجموعة قفازات، حزم من العصي التي قد تجدها في عشرة آلاف منزل بريطاني، وكومة من المعاطف المطوية الواقية من المطر تغطي الجزء العلوي من الخزانة، إضافة لتكتكة ساعة قديمة وبعض المقتنيات النحاسية

اللامعة على الجدران، إلى جانبها يوجد بارومتر (15) وصورة فوتوغرافية ساحرة لشارع في محطة «تشيلترن» بإنجلترا، إذ كان يأخذ طابعًا تقليديًّا لكنيسة أرثوذكسية.

عندما سألتني الخادمة عن اسمي أخبرتها إياه في ردة فعل تلقائية، ثم أرشدتني ناحية غرفة التدخين، أما على الجانب الأيمن من الردهة فقد كانت هناك غرفة لم يكن لدي الوقت لتفحصها، تسنى لي فقط رؤية بعض الصور الجماعية الموضوعة على رف الموقد، كنت متأكدًا من كونهم صورًا لتجمع في مدرسة إنجليزية أو جامعة ما، ولكني لم أستطع سوى لمحها في نظرة خاطفة كي أتمكن من اتباع الخادمة، ولكنني تأخرت قليلًا، إذ كانت دلفت غرفة الطعام بالفعل، ومررت اسمي إلى سيدها الذي فاتتني ردة فعله جراء سماعه إياه، عندما دخلت الغرفة نهض الرجل العجوز الذي كان يترأس الطاولة واستدار لاستقبالي، كان في لباس السهرة المكون من معطف قصير وربطة عنق سوداء، كما كان صديقه الذي كان عالقًا في ذهني كرجل بدين.

أما الثالث عابس الوجه فقد كان يرتدي حلة زرقاء ووشاحًا أبيض ناعمًا حول عنقه، بألوان تعكس تبعيتها لزي مدرسي أو ناد ما، كان سلوك الرجل العجوز طبيعيًّا جدًّا إذ سألني قائلًا: «سيد هاناي؟ هل رغبت برؤيتي؟ اعذروني للحظة أيها الزملاء وسأعاود الانضمام إليكم، فمن الأفضل أن ننتقل نحن إلى غرفة أخرى».

وعلى الرغم من أنني لم أكن أملك ذرة ثقة في نفسي إلا أنني أجبرتها على اللعب، فقمت بسحب مقعد كي أجلس عليه وشرعت قائلًا: «أعتقد أننا التقينا من قبل، وأظن أنكم على علم بعملي».

كان الضوء في الغرفة خافتًا حيث استطعت بالكاد رؤية وجوههم التي كانت ترتدي قناع الربكة حسب ما خيل إليّ، فقال الرجل العجوز: «ربما، ربما، فلم أعد أمتلك ذاكرة جيدة، أخشى أنه عليك أن تخبرني بمهمتك يا سيدي، لأنني حقًّا لا أعلمها».

فأجبته بينما أشعر بالحمق الشديد أمام نفسي:

«حسنًا، لقد جئت أخبركم أن اللعبة قد انتهت، كما أن لدي أمرًا باعتقال ثلاثتكم أيها السادة».

فقال الرجل العجوز منزعجًا بينما تبدو عليه الصدمة:

«اعتقال! يا إلهي، لأي سبب؟».

فأجبته:

«بتهمة قتل «فرانكلين سكودر» في لندن في اليوم الثالث والعشرين من الشهر الماضي».

فجاء رده:

«لم أسمع بهذا الاسم من قبل».

إلى أن تفوه أحدهم بنبرة متفاجئة:

«إنها جريمة قتل بورتلاند، لقد قرأت عن ذلك، من المؤكد أنك جننت بحق السماء! أين جهة تتبع أنت؟».

فقلت له:

«سكوتلاند يارد».

حتى ساد المكان صمت تام لمدة دقيقة، بينما كان الرجل العجوز يحدق في صحنه متلعثمًا، كرد فعل نموذجي وحيرة طبيعية، ومن ثم تحدث إليه ذو الجسم الممتلئ كمن يحاول استجماع الكلمات:

«لا تشعر بالارتباك يا عمي، فكل هذا خطأ سخيف، فهذه الأمور تحدث أحيانًا ويمكننا ضبطها بسهولة، لن يكون من الصعب إثبات براءتنا، يمكنني أن أثبت أنني كنت خارج البلاد في ٢٣ مايو، وكان بوب في دار للرعاية، بينما كنت أنت في لندن، وبالطبع يمكنك شرح ما كنت تفعله».

فرد عليه:

«هذا صحيح يا بيرسي! بالطبع هذا أمر سهل، يوم الثالث والعشرون! كان ذلك بعد يوم من زفاف أغاثا، دعني أتذكر ما كنت أفعله، غادرت في الصباح من مدينة «ووكينغ»، وتناولت الغداء في النادي مع تشارلي سيمونز، ومن ثم تناولت عشائي مع تجار السمك، أتذكر أنني شعرت بالتوعك في صباح اليوم التالي، انتظروا، فإن علبة السيجار التي أحضرتها خلال العشاء هنا».

قالها وهو يشير للطاولة ويبتسم في غضب، بينما قاطعه الشاب مخاطبًا إياي بكل احترام:

«أعتقد يا سيدي أنك سترى كونك مخطئًا، نرغب في مساعدة القانون بالطبع مثل جميع المواطنين الإنجليز، ولكننا لا نود أن يبدو رجال «سكوتلاند يارد» كالحمقى أمام أنفسهم، أليس كذلك يا عمي؟».

فرد كمن يستعيد عافيته:

«بالتأكيد يا بوب، بالتأكيد سنفعل أي شيء في وسعنا لمساعدة السلطات، ولكن هذا أمر مبالغ فيه جدًّا، لا أستطيع تحمله».

فقال له زميلنا الآخر:

«لكم ستسعد نيللي لذلك، كانت دائمًا ما تقول إنك ستموت من الملل، إذ لم يحدث لك أي شيء في حياتك، أما الآن فلديك فرصة قوية»، قالها وهو يضحك في سرور بالغ، بينما ينظر إليّ العجوز:

«هذا صحيح، فبمجرد التفكير في الأمر! يا لها من قصة شيقة كي تتلوها في النادي، سيد هاناي أفترض أنني يجب أن أكون غاضبًا لإثبات براءتي، لكن الأمر مضحك للغاية! أغفر لك الرعب الذي سببته لي! لقد بدوت متهجمًا لدرجة جعلتني أظن أنني ربما أسير في نومي وأقتل الناس».

لم يكن حديثه يبدو مزيفًا في نظري، كان حقيقيًّا على نحو مروع، حتى شعرت بقلبي يسقط في قدميّ، وانتويت الاعتذار منهم في البداية والخروج على الفور، لكنني قررت أنني يجب أن أستكمل هذا، حتى لو اضطررت أن أجعل من نفسي أضحوكة بريطانيا، لم يكن الضوء الصادر من شموع الطاولة

جيدًا بما فيه الكفاية، ولإخفاء شعور الارتباك الذي أصابني للتو ونهضت ناحية الباب وأشعلت ضوءًا جعل أعينهم تطرف جراء شعاعه المفاجئ، ووقفت أتفحص الوجوه الثلاثة. حسنًا، لم أخرج بنتيجة حاسمة، كان أحدهم كبير السن وأصلعًا، وثانيهم بدينًا، بينما كان الآخر نحيلًا عابس الوجه.

لم يكن هناك أي شيء في مظهرهم من شأنه أن ينفي كونهم الثلاثة الذين أمسكوا بي في اسكتلندا، ورغم ذلك فلم يكن هناك شيء من شأنه أن يحدد هويتهم بصورة حاسمة، ولكني لم أكن مرتاحًا لكل ذلك دون سبب واضح. أنا الذي استطعت التنكر في دور مرمم الطرق وقابلت أناس منهم، وكذلك دور «نيد آينسلي» الذي تسنى له رؤية أناس آخرين، أنا الرجل الذي يمتلك ذاكرة قوية وصلاحيات كافية كنت مرتابًا حيال الأمر.

لقد بدوا تمامًا كما يزعمون، في غرفة الطعام اللطيفة هذه، مع النقش على الجدران، وصورة لسيدة عجوز في ثوب كالمريلة، لم أتمكن من رؤية أي شيء من شأنه أن يكون على صلة بما حدث في أرض المستنقعات تلك.

كان هناك صندوق سيجارة فضّي بجانبي، وتراءى لي أنه يعود للسيد «بيرسيفال أبلتون» إذ فاز به في دورة للجولف من نادي «بيد» الاجتماعي، كان عليّ أن أواصل التفكير في كلام «بيتر بينار» فحسب كي أمنع نفسي من الانسحاب من ذلك المنزل، وهنا قال الرجل العجوز في تأدب:

«حسنًا، هل انتهيت من فحصك يا سيدي؟».

فلم أستطع العثور على كلمة.

ليستكمل:

«آمل أن يكن من واجبك إسقاط هذه التهم السخيفة، فأنا لن أتقدم بشكوى، ولكنك تتفهم كيف أن أمرًا كهذا يعد مزعجًا بالنسبة إلى أشخاص محترمين».

أومأت برأسي ليقول الشاب:

«يا إلهي، فالأمر مبالغ فيه بعض الشيء».

بينما سألني الآخر: «هل تعتزم الذهاب بنا إلى مركز الشرطة؟ قد تكون هذه أفضل طريقة للخروج من الأمر، لدي الحق في طلب الاطلاع على مذكرتك، لكنني لا أرغب في إلقاء أي لوم عليك، إذ إنك تقوم بواجبك فحسب، ولكن عليك الاعتراف بأن هذا غير ملائم وغريب للغاية، ما الذي تنوي القيام به؟».

لم أكن أمتلك خيارًا سوى استدعاء رجالي وإلقاء القبض عليهم، أو الاعتراف بخطئي الفادح وإيضاح حماقتي، كنت كالمسحور في هذا المكان، مسحورًا بهذا الجو من البراءة الجلية، والحيرة البادية يصاحبها القلق على وجوههم الثلاثة، بينما أتأوه بداخلي متمتمًا:

«آه منك يا بيتر بينار!» إذ كنت على وشك الاعتذار منهم وطلب العفو، ومن ثم المغادرة فحسب.

وهنا قاطعني الرجل البدين هذا قائلًا:

«في هذه الأثناء، أقترح أن نشرع في لعب الورق، فهذا من شأنه أن يمنح السيد هاناي وقتًا للتفكير، وكما تعرف فالطبع نرغب في لاعب رابع، هل تلعب يا سيدي؟».

فقبلت كما لو أنها كانت دعوة عادية في النادي، فالأمر برمته كان قد ألقى بسحر غامض عليّ، ذهبنا إلى غرفة التدخين حيثما توجد طاولة عليها الورق، وعرضوا علي ما يمكنني تدخينه وكذلك ما أحتسيه، أخذت مكاني على الطاولة وكأنني في حلم ما، كانت النافذة مفتوحة، القمر يغمر المكان بفاصل من الضوء الأصفر بينما لازالت أفكاري هائجة في رأسي تمامًا، استعاد الثلاثة رباطة جأشهم وكانوا يتجاذبون أطراف الحديث الذي من شأنك سماعه في أي نادي جولف، وأنا أجلس عيني في أوسط جبيني هكذا، كان شريكي هو الشاب ذو الوجه العابس.

شرعت ألعب الورق في حالة معنوية سيئة للغاية في تلك الليلة، لقد تراءى لهم كيف أصابوني بالحيرة، وباتوا يتصرفون على طبيعتهم تمامًا، ظللت أتفحص وجوههم، لكنها لم تخبرني بشيء، لم يبد أي منهم مختلفًا عمّ يدعي، لكنهم كانوا مختلفين بالنسبة لي، حتى ولو أنهم كذلك لي وحدي، فلازلت متشبثًا بكلمات «بيتر بينار» دون أمل، ثم انتبهت لشيء ما! فعندما أنزل الرجل العجوز يده لإشعال السيجار لم يرفعها مرة واحدة، بل أبقاها على حالها وتموضع للحظة مستندًا برأسه للخلف، بينما ينقر بأصابعه على ركبتيه، كانت تلك هي الحركة التي تذكرتها عندما كنت أقف قبالته في بيت المزرعة، بينما تتوجه نحوي أسلحة خادميه من الخلف، شيء بسيط عابر كهذا! استمر لثانية واحدة فقط! كانت احتمالات تفويتي إياه تفوق المائة بالمائة، إذ كان من المرجح كوني أصب جل تركيزي على بطاقات اللعب. لكنني لم أفعل، وفي ومضة سريعة زالت الغمامة عن عيني، ورفع الغموض من عقلي، وبت أنظر لهؤلاء الثلاثة في كامل إدراكي بكينونتهم.

دقت الساعة تمام العاشرة فيما بدت أوجههم تتبدل قبالتي وتكشف عن أسرارها، كان الشاب هو القاتل، إذ أمكنني الآن رؤية القسوة والوحشية في طباعه، فلم أرَ في بداية الأمر سوى روح الدعابة، كان سكينه هو من طرح «سكودر» أرضًا، كما أسكن الرصاصة في جسد كاروليديس، كما كانت ملامح الرجل البدين هذا تتبدد كذلك ومن ثم تتشكل ثانية، فعندما كنت أنظر إليه لم أكن أرى وجهًا محددًا بل مائة قناع كان بإمكانه أن يتظاهر بهم، لابد من كونه ممثلًا بارعًا، ربما هو من تولى دور اللورد ألوا في الليلة الماضية، أو ربما لا؛ لا يهم.

تساءلت بيني وبين نفسي إذا ما كان هو الرجل الذي تتبّع «سكودر» لأول مرة، أما ذلك المسن فمن المؤكد أنه العقل المدبر، عقل مسمم، متجمد، بارد، وحذر جدًّا، قاسٍ كمطرقة، والآن بعد أن أدركتهم عيناي كنت أتساءل: أين رأيته؟ كان فكه كالفولاذ، عيناه تلمع بوحشية، واصلت اللعب ومع كل ثانية تمضي كانت تتعاظم الكراهية في قلبي، حتى كدت أختنق، ولم أتمكن من الإجابة عندما تحدث شريكي إلي، إذ لم أحتمل صحبتهم لفترة أطول.

ومن ثم قال العجوز:

«بوب! انظر الى الوقت، من الأفضل لك أن تفكر في كيفية لحاقك بالقطار».

وأضاف بينما يشيح بنظره إلي: «يتعين على بوب الذهاب إلى المدينة الليلة».

بدا الزيف في صوته واضحًا إليّ كالجحيم، نظرت إلى الساعة التي كانت تقارب العاشرة والنصف، وقلت:

«أخشى أنه يتعين عليه تأجيل الرحلة».

فقال الشاب:

«اللعنة على ذلك، اعتقدت أنك قد اكتفيت من هذا الهراء، عليّ أن أذهب ويمكنك الحصول على عنواني، سأعطيك أي ضمانة تريدها».

فأجبته:

«لا، يتعين عليك البقاء فحسب».

وفي ذلك الوقت أيقنت أنهم قد أدركوا أن اللعبة أصبحت بلا أمل، كانت خطتهم الوحيدة هي إقناعي بكوني أحمق فيما أقوله، وها هي قد باءت بالفشل، وهنا تحدث ذلك المسن مجددًا:

«سأتكفل بالأمر عوضًا عن ابن أخي، يجب أن يرضيك هذا يا سيد هاناي».

أكان هذا خيالًا، أم أنني شعرت بتلعثم في سلاسة ذلك الصوت؟ لا أعلم، ولكني عندما نظرت إليه هبطت أجفانه على عينيه كنظرة الصقر التي تقطن في ذاكرتي! فأطلقت صفيري، وفي ردة فعل سريعة قام رجلان ذوا أذرع قوية بسحبي من خصري يتفحصون الجيوب التي من المتوقع أن أحمل فيها مسدسًا بعدما أطفأت الأضواء مرة أخرى، لأسمع صياح في ذلك الحين مناديًا:

«شانيل! فرانز! القارب القارب».

وعندما وصل رجالي إلى المشهد، قفز الشاب ذو الوجه العابس من النافذة، وبلغ السور المنخفض قبل أن تستطع يدنا الإمساك به، بينما أمسكت بذلك العجوز، إلى أن امتلأت الغرفة بالأشخاص، كما تم القبض على ذلك البدين أيضًا.

لكن عيناي كانتا منكبتين على مخارج البوابات، حيث كان يسرع «فرانز» هذا على الطريق المؤدي إلى مدخل السلالم على الشاطئ، تبعه أحد الرجال، لكنه لم يستطع اللحاق به حيث أحكم إغلاق بوابة الدرج من خلفه، وقفت أحدق بما يحدث بينما تحاوط يداي عنق هذا المسن أتخيل الوقت الذي قد يستغرقه نزولًا لتلك الدرجات ناحية البحر؟ وعندما نجح العجوز في الإفلات مني، قذف بنفسه ناحية الحائط كي ينقر نقرة كان من شأنها سحب رافعة ما! ثم بدا كأن هناك شيئًا يرتفع بعيدًا عن الأرض بالفعل، إذ تراءت لي سحابة من الغبار من خلال النافذة التي كانت قادمة من ناحية الدرج، ومن ثم أشعل أحدهم الضوء ونظر إليّ الرجل بأعينه اللامعة وهو يصيح:

«إنه آمن، لا يمكنك تتبعه.. لقد رحل.. لقد فعلها ونجح.. البلاك ستون».

كان تلك العيون تعكس ما هو أكبر من نصر عادي، كانوا كأعين أحد الطيور الجارحة، وها هم الآن يلهون بفخر الصقور التي نالت من فريستها، اشتعلت بكليهما حماسة بالغة، حتى أدركت للمرة الأولى

روع الجماعة التي كنت أواجهها، كان هذا الرجل أكثر من جاسوس، كان محبًّا لوطنه على نحو شنيع.

وبينما توضع الأصفاد حول معصميه وجهت إليه كلمات أخيرة:

«آمل أن يحافظ «فرانز» على انتصاره جيدًا! إذ يتعين عليّ إخبارك أن سفينة «أريادن» تلك تسير تحت مراقبتنا حتى آخر لحظة».

وبعد ثلاثة أسابيع، وبعدما أصبح العالم كله على علم بالقضية، خضنا الحرب، والتي التحقت بالجيش في الأسبوع الأول لها، ونظرًا لتجربتي في «ماتابيلي» حصلت على رتبة نقيب - قائد فرقة - مباشرة، وقد قدمت أفضل ما عندي حسبما أعتقد، قبل أن أرتدي الكاكي([16]).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عن المؤلف

جون بوكان - John Buchan

أغسطس ١٨٧٥ – فبراير ١٩٤٠

- جون بوكان، روائي ومؤرخ اسكتلندي وهو أيضًا الحاكم العام الخامس عشر لكندا في الفترة من ١٩٣٥ وحتى وفاته.

- عمل لفترة في أحد مجالات القانون، ثم بعد ذلك بدأ في الكتابة، إلى جانب عمله في مجال السياسية والدبلوماسية.

- أصبح في عام ١٨٩١ السكرتير الخاص لـ«ألفريد ميلنر» الذي كان آنذاك يشغل منصب المفوض السامي لمناطق جنوب إفريقيا وحاكمًا لمستعمره كيب.

- في عام ١٩١٠، كتب بوكان رواية بعنوان: الكاهن يوحنا، وهي من أول رواياته في مجموعة المغامرات في جنوب إفريقيا،

وتمكن من الدخول في شراكة (توماس لينسون آند سن) للنشر، ثم محررًا لصحيفة سبيكتيتر.

- تولى مسئولية الدعاية لجهود بريطانيا في الحرب العالمية الأولى، كما تم انتخابه في عام ١٩٢٧ عضوًا للبرلمان عن تجمع الجامعات الاسكتلندية المشتركة.

- عمل سكرتيرًا خاصًا لدى عدد من مسئولي المستعمرات المختلفة في جنوب إفريقيا، رغم ذلك قضى معظم وقته في الكتابة.

- أعلن في البرلمان الكندي بتاريخ ٢٧ مارس ١٩٣٥ بأن الملك قرر الموافقة على تعيين «جون بوكان» كممثل لنائب الملك.

- قام بوكان وزوجته بوضع جوائز تشجيعية تحت مسمى (جوائز الحاكم العام في الأدب)، ولا تزال هذه الجوائز هي الرئيسية في كندا، وقد أصبح اثنان من أحفاده من الكتّاب بعد ذلك.

- إلى الآن لا يعرف الكثيرون أن الروائي «جون بوكان» صاحب الرواية الأشهر في عالم روايات الألغاز والجريمة هو رجل تم تعيينه حاكمًا عامًّا لكندا، من قبل الملك جورج الخامس. تولى «جون» هذا المنصب حتى وفاته في عام ١٩٤٠. وقد أظهر «بوكان» حماسه لمحو الأمية، وكذلك تطوير الثقافة الكندية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

فهرس المحتويات

عن الرواية

الفصل الأول
الرجل الذي لقي حتفه
الفصل الثاني
بائع الحليب يبدأ رحلاته
الفصل الثالث
مغامرة الأديب مالك النزل
الفصل الرابع
مغامرة المرشح الراديكالي «المتطرف»
الفصل الخامس
مغامرة مرمم الطرق ذو العوينات
الفصل السادس
مغامرة عالم الآثار الأصلع
الفصل السابع
الصياد ذو الطعم الصناعي
الفصل الثامن
قدوم «البلاك ستون»
الفصل التاسع
الدرجات التسع وثلاثون
الفصل العاشر
أطراف متباينة على ضفاف البحر

عن المؤلف

Notes

[←1]

(1) (رياضة جماعية يلعبها فريقان يقومان بضرب الكرة ورميها بالتناوب - رياضة انتشرت بين أفراد الطبقة الارستقراطية قرب نهاية القرن السابع عشر)

[←2]

(2) (حرب نشبت بين الأفارقة والإنجليز بين عامي ١٨٨٠ و ١٨٨١).

[←3]

(3) نبات اسكتلندي يساعد في شفاء الكثير من الأمراض مثل مشاكل العظام والروماتيزم والنقرس.

[←4]

(4) (روديارد كيبلينج وجوزيف كونراد هم ناقدين روائيين بريطانيين في القرن الـ ١٩).

[←5]

(5) شخصية خيالية في روايات ديكنز.

[←6]

(6) (تعبير لفظي يشير إلى العدد اثني عشر).

[←7]

(7) ليلة الألعاب النارية - احتفال سنوي في بريطانيا.

[←8]

(8) (نوع من النباتات الإنجليزية المتسلقة أوراقها والتي تشبه أوراق شجرة العنب).

[←9]

(9) شجرة جميلة المنظر تستخدم لظلها وبعذ الأنواع لها استخدامات طبية كالدردار الهندي.

[←10]

(10) شاعر اسكتلندي،من ألقابه الشاعر الفلاح يعتبر بيرنز الشاعر الوطني لاسكتلندا. ومن أشهر أناشيده على المستوى العالمي نشيد الوداع.

[←11]

(11) أغنية اسكتلندية.

[←12]

(12) هي مدينة تقع في الولايات المتحدة في لويزيانا.

[←13]

(13) مقر جهاز الشرطة البريطانية.

[←14]

(14) نوع من الظباء الإفريقية.

[←15]

(15) جهاز لقياس الضغط الجوي.

[←16]

(16) (ملابس عسكرية).